الخطاب الدعوي عند الشيخ علي يحي معمر
دراسة استقرائية تحليلية

د. خالد سعيد تفوشيت
قسم أصول الدين، كلية العلوم الشرعية سلطنة عُمان
ksaid@css.edu.om
0096891281173

الملخص:

يشغل الخطاب الدعوي حيزاً كبيراً لدى المثقفين وعامة الناس على حد سواء في المجتمع حيث يلعب دوراً كبيراً في صناعة العقل المسلم والتحكم في سلوك وتصرفات الأجيال، وبناء ثقافة المجتمعات، وصياغة تصورها للحياة في شتى مجالاتها الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

ويمكن إبراز أهمية هذا الخطاب من خلال جهود الشيخ علي معمر الدعوية، ومدى اعتماده على المرجعية القائمة على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وكذلك من خلال إبراز مدى وضوحُ الخطاب الدعوي عند الشيخ وبساطته وعدم تعقيده أو التقعّر في عباراته وألفاظه. ويتأتى ذلك بتقييم الخطاب الدعوي المعاصر من خلال دراسة المنهج الذي سار عليه الشيخ علي معمر في الدعوة إلى الله وذلك بالوقف على آلياته وأدواته. وتحديد جوانب التجديد للشيخ علي يحي معمر في الخطاب الدعوي من خلال: فكره ودراساته في الحقل الدعوي والتاريخي.

ودراسة هذا النوع من الخطاب يحتاج إلى الاعتماد على منهجية تقوم على الاستقراء والتحليل والتقييم والتقويم المستمر بما يخدم ويقوّم مسار العاملين في الحقل الدعوي.

ويستدعي هذا اتباع منهج يقوم على تقسيم البحث إلى ثلاثة محاور متضمنة لتفريعات عدة، يتناول المحور الأول مضمون الخطاب الدعوي وعناصره، عند الشيخ علي معمر، ويعرض المحور الثاني الخطاب الدعوي عند الشيخ علي معمر بجانبيه التنظيري والتطبيقي، ويركز المحور الثالث على آليات الخطاب الدعوي وأدواته عند الشيخ علي معمر.

الكلمات المفتاحية: الخطاب، الدعوة، علي معمر.

Abstract:
The advocacy discourse of Sheikh **Ali Yahya Muammar (**a critical and analytical study**)**

In general, advocacy discourse enjoys the presence of intellectuals and common people alike in society, where they are closely present in the making of Muslims and communication across generations, and they can learn, and they can imagine life in its various diverse social, political, and political fields.

The importance of this discourse can be highlighted through the advocacy efforts of Sheikh Ali Muammar, and the extent of his reliance on the authority based on the Holy Qur'an and the purified Sunnah of the Prophet, as well as by highlighting the extent of the clarity and simplicity of the sheikh's advocacy discourse and its lack of complexity or concavity in his expressions and words. This is achieved by evaluating contemporary advocacy discourse through studying the approach followed by Sheikh Ali Muammar in calling to God by examining its mechanisms and tools. And identifying aspects of Sheikh Ali Yahya Muammar's renewal in the preaching discourse through: his ideas and studies in the preaching and historical fields.

Studying this type of discourse requires relying on a methodology based on induction, analysis, evaluation, and continuous evaluation in a way that serves and evaluates the path of those working in the advocacy field.

This calls for following an approach based on dividing the research into three axes that include several branches. The first axis deals with the content of the advocacy discourse and its elements, according to Sheikh Ali Muammar. The second axis presents the advocacy discourse according to Sheikh Ali Muammar in both its theoretical and applied aspects. The third axis focuses on the mechanisms of the advocacy discourse and its tools when... Sheikh Ali Muammar.
Keywords: speech, invitation, Ali Muammar

مقدمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصلاة وبالعمل بطاعته تطيب الحياة وتنزل البركات، والصلاة والسلام على أشرف المخلوقات سيدنا محمد وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين...

أما بعد...

فإنَّ الخطاب الدعوي يشغل حيزاً كبيراً لدى المثقفين وعامة الناس على حد سواء في المجتمع، حيث يلعب دوراً كبيراً في صناعة العقل المسلم، والتحكم في سلوك وتصرفات الأجيال، وبناء ثقافة المجتمعات، وصياغة تصورها للحياة في شتى مجالاتها الفكرية، والاجتماعية، والسياسية والاقتصادية.

أهمية البحث:

1- تكمن أهمية الخطاب الدعوي عند الشيخ علي يحي معمر في المرجعية القائمة على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

2- وضوحُ الخطاب الدعوي عند الشيخ وبساطتُه وعدمُ تعقيده أو التقعُّرِ في عباراته وألفاظه.

أسئلة البحث:

1- ما الآليات المنهجية التي اعتمدها الشيخ علي يحي معمر في ضبط الخطاب الدعوي مقاربة مع القضايا والإشكاليات المعاصرة؟

2- إلى أي مدى يمكن اعتبار الشيخ علي يحي معمر وأفكاره التي طرحها على الساحة الدعوية داخليا وخارجيا ذات مضامين تجديدية، وما ملامح التجديد في خطابه؟

أهداف البحث:

1- تقييم الخطاب الدعوي المعاصر من خلال دراسة المنهج الذي سار عليه الشيخ علي معمر في الدعوة إلى الله وذلك بالوقف على آلياته وأدواته.

2- دراسة جوانب التجديد في الخطاب الدعوي للشيخ علي معمر من خلال: فكره ودراساته في الحقل الدعوي والتاريخي.

منهج البحث:

مما لا شك فيه أنَّ دراسة هذا النوع من الخطاب يحتاج إلى الاعتماد على منهجية تقوم على الاستقراء والتحليل والتقييم والتقويم المستمر بما يخدم ويقوِّم مسار العاملين في الحقل الدعوي.

خطة البحث:

يستدعي هذا البحث اتباع منهج يقوم على تقسيم البحث إلى تمهيد وثلاثة محاور متضمنة لتفريعات عدة، وهي كما يلي:

مقدمة:

المحور الأول: مضمون الخطاب الدعوي وعناصره، عند الشيخ علي معمر

أولاً: مضمون الخطاب الدعوي.

ثانيًا: عناصر الخطاب الدعوي.

المحور الثاني: الخطاب الدعوي عند الشيخ علي معمر بين التنظير والتطبيق.

أولاً: الجانب التنظيري للخطاب الدعوي عند الشيخ.

ثانياً: الجانب التطبيقي للخطاب الدعوي عند الشيخ.

المحور الثالث: آليات الخطاب الدعوي وأدواته عند الشيخ علي معمر.

أولًا: تفعيل رسالة المسجد والمؤسسات العلمية والأندية الثقافية.

ثانياً: تصحيح المفاهيم والمصطلحات.

المحور الأول: مضمون الخطاب الدعوي وعناصره عند الشيخ علي يحي معمر

أولاً: مضمون الخطاب الدعوي.

- **الخطاب** لغة: "مادة خطب" تدل على الكلام، قال ابن فارس: "الخاء والطاء والباء: أصلان أحدهما الكلام بين اثنين يقال خاطبه يخاطبه خطابا، والخطبة من ذلك. وفي النكاح الطلب أن يزوج، قال الله تعالى: {ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء} [البقرة: 235]. والخطبة: الكلام المخطوب به. ويقال اختطب القوم فلانا، إذا دعوه إلى تزوج صاحبتهم"[1].

"والخِطَابُ والمُخَاطَبَةُ: مُرَاجَعَةُ الكَلاَمِ، وقَدْ خَاطَبَهُ بالكَلاَم مُخَاطَبَةً وخِطَاباً، وهُمَا يَتَخَاطَبَانِ، قَالَ الله تَعَالَى: {وَلاَ تُخَاطِبْنِى فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ} [هود: 37]، وقِيلَ هُوَ جَمْعُ مَخْطَبَةٍ، والمَخْطَبَةُ: الخُطْبَةُ، والمُخَاطَبَةُ: مُفَاعَلَةٌ من الخِطَابِ والمُشَاوَرَة"[2].

- **واصطلاحا:** عرفه الجرجاني بأنه: "قياس مركب من مقدمات مقبولة أو مظنونة من شخص معتقد فيه، والغرض منها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم"[3].

وعرَّفه بعضهم بأنه: "تَوْجِيه الْكَلَام نَحْو الْغَيْر للإفهام ثمَّ نقل مِنْهُ إِلَى مَا يَقع بِهِ التخاطب من الْكَلَام لفظيا أَو نفسيا"[4].

- **الدعوة لغة:** دعا الرجل دعوا ودعاء ناداه والاسم الدعوة، ورجل داعية إذا كان يدعو الناس إلى بدعة أو دين، أدخلت الهاء فيه للمبالغة. والنبي ﷺ داعي الله تعالى، وكذلك المؤذن. وفي التهذيب: المؤذن داعي الله والنبي ﷺ داعي الأمة إلى توحيد الله وطاعته. قال الله عز وجل مخبرا عن الجن الذين استمعوا القرآن: {يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ} [الأحقاف: 31] ويقال لكل من مات دُعي فأجاب. ويقال: دعاني إلى الإحسان إليك إحسانك

(1) ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني: معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ - 1979م، ج2، ص198.

(2) الزَّبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، ج2، ص376.

(3) الجرجاني، علي بن محمد بن علي: التعريفات، تحقيق وضبط وتصحيح جماعة من العلماء بإشراف دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، 1403هـ -1983م، ص99.

(4) الأحمد نكري، عبد النبي بن عبد الرسول: دستور العلماء = جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، ترجمه من الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، 1421هـ - 2000م، ج2، ص61.

إلي. ودعا الرجل دعوا ودعاء: ناداه، والاسم الدعوة. ودعوتُ فلانًا أي صحت به واستدعيته. وتداعى القوم: دعا بعضهم بعضا حتى يجتمعوا، والدعاة: قوم يدعون إلى بيعة هدى أو ضلالة، واحدهم داع [5].

الدعوة في الاصطلاح:

هناك تعريفات كثيرة للدعوة، نتناول منها تعريفين لبعض المختصين بهذا العلم، ثم الخروج بتعريف يشمل جميع التعريفات التي تناولت هذا المصطلح منها.

– تعريف الشيخ محمد الغزالي الدعوة بأنها: "الدعوة هي برنامج كامل يضم في أطوافه جميع المعارف التي يحتاج إليها الناس ليبصروا الغاية من محياهم، وليستكشفوا الطريق التي تجمعهم راشدين"[6].

– وتعريف الشيخ محمد أبو الفتح البيانوني الدعوة بأنها: "تبليغ الإسلام للناس، وتعليمه إياهم، وتطبيقه في واقع الحياة"[7].

مفهوم الخطاب في اللغة والاصطلاح:

الخطاب في اللغة يعني: الكلام الذي يُقصد به الإفهام. أمّا المفهوم القرآني، كما في قوله تعالى:} وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ}[ص:20]، فيرتقي باللفظ إلى مستوى أرفع، ملتصقاً بالحكمة، وهي وضع الأمور في حاقِّ موضعها، وتدبيرها على ما ينبغي لها.

والخطاب هو كلام نافع، يسوق الحجج والبراهين، بغرض إفهام المخاطبين به، والتأثير فيهم تأثيراً يحملهم على الالتزام به.

وحسب المفاهيم الحديثة أصبح مصطلح (الخطاب) يدلّ على المنهاج في التفكير والتصوّر، وفي التعبير عن الأفكار والتصوّرات. فالخطاب، في هذا المقام، ليس مجرد أسلوب للتبليغ، وطريقة للتعبير عن الرأي والموقف.. لكنه، أيضاً الوعاء المعبِّر عن العقيدة والفلسفة والفكر.

وإلى هذا المعنى تنصرف الأذهان عند الحديث عن الخطاب الدعوي، باعتبار أنَّ المقصود هو الوسيلة التي يخاطب بها المسلم العالم، والمنهاج الذي يصوغه من خلال فكره، ورأيه، وموقفه، الذي يريد إيصاله إلى القطاع الأوسع من الرأي العام، وذلك عبر وسائط الإعلام والتواصل المختلفة، من المقروءة والمرئية والمسموعة [8].

(5) انظر ابن منظور، محمد بن مكرم بن على: لسان العرب، دار صادر، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، 1414 هـ، ج14، ص258.

(6) الغزالي، محمد: مع الله، طبعة دار القلم 1426هـ، ص 17.

(7) البيانوني، محمد أبو الفتح: المدخل إلى علم الدعوة، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، ص22.

(8) انظر البشير، عصام أحمد: نحو خطاب إسلامي مرتبط بالأصل ومتصل بالعصر، منتدى النهضة والتراث الحضاري، الخرطوم، ، ط2، 2015م، ص 9، 11.

مفهوم مركب الخطاب الدعوي:

يُقصد بالخطاب الدعوي: الكلام والمنهج الدعوي الملفوظ، أو المكتوب، فالخطاب الدعوي، بمكوناته، هو نفسه منهج الدعوة الإسلامية، الذي هو: مجموعة الطرق والقواعد والإجراءات التي تحدّد السبل المثلى لممارسة الدعوة إلى الإسلام، والضوابط الخاصة بكل عنصر من عناصر الاتصال الدعوي، لضمان تحقيق الدعوة لأهدافها، بما يساعدها على الوصول إلى الحق، وتحقيق الفهم السليم للإسلام، والتصدي للتحديات التي تواجهه.

والخطاب هو القاعدة الذهنية التي توجِّه الدعاة وعلماء الدين بمختلف توجهاتهم وانتماءاتهم، بل وأكثر من ذلك توجّه الفرد المسلم في جميع سلوكياته ونشاطاته ووجوده في المجتمع، وتنظّم علاقاته بربه وبالناس أجمعين، لأن الخطاب نتاج الفكر والثقافة والبيئة التي يعيش فيها الإنسان [9].

فالخطاب الدعوي إذن هو: البيان الهادف إلى دعوة الناس إلى منافعهم معاشا ومعاداً، المساير لمتغيرات العصر ومستجداته، المراعي لظروف المخاطبين وواقعهم.

وبهذا ندرك أن المفهوم المركب لمصطلح الخطاب الدعوي يعني "جملة ما يصدر عن المتكلمين من مضامين دعوية تتلاءم مع متغيرات ومستجدات العصر، بعد فهم ظروف واقعهم وما يحتاجه الجمهور شرط التقيد بالأطر المرجعية المقدسة من أجل استمالة المتلقي للخطاب الدعوي، وجعله يتأثر به ويستجيب له"[10].

ويتأتى ذلك باستعمال كل الوسائل المشروعة، والتي تؤدي الدور الدعوي المنوط بها في خدمة الدعوة الإسلامية، فالخطاب الدعوي: هو بيان الدعوة الهادف إلى تفهيم الناس دعوة الله عز وجل.

ثانياً: عناصر الخطاب الدعوي.

يعتمد الخطاب الدعوي على عناصر تتغير في أسلوب عرضها، وهذه العناصر في الخطاب تختلف من زمن لآخر، ومن بيئة لأخرى، ومن قوم لغيرهم، كما يتضمن متغيرات تقبل التجديد والاجتهاد.

وتحديد عناصر هذا الخطاب التي تقوم عليها الدعوة، والاعتماد على النقد ومن ثَمَّ التجديد فيها ليست فكرة مرفوضة إسلاميًّا؛ فالقرآن الكريم قد غيَّر من أسلوب خطابه الدعوي من مكان لمكان، ومن وقت لوقت، ودلل على ذلك بالاستشهاد باختلاف الخطاب في الموضوعات والأسلوب ما بين القرآن المكي والقرآن المدني،

(9) انظر ملخص نتائج ورشة عمل: عناصر الخطاب الإسلامي في كوردستان، تحليل وتقويم: مركز الزهاوي للدراسات الفكرية، السليمانية، 2015م، ص 13.

(10) عليوة، نعمان شعبان: الأساليب البيانية للخطاب الدعوي الواعي، مؤتمر الدعوة الإسلامية ومتغيرات العصر، الجامعة الإسلامية، غزة: فلسطين، ط1، 2005، ص8.

ويمكن حصر هذه العناصر في: (الداعية المبلغ للخطاب، والمدعو وهو المتلقي للخطاب، والخطاب أو المحتوى، والوسيلة أو أداة تبليغ الخطاب).

1) **المخاطِب (الداعية)**: هو المبلغ للخطاب، ويشترط فيه أنْ يكون مستوعبًا لمعنى الدعوة إلى الله كما ينبغي للداعية أن يكون مؤمنًا بما يدعو إليه، وأهلاً له، وعالماً به.

ويرى الشيخ علي معمر أنَّ من أوضح الخطوط فيما ينبغي أن يكون عليه سلوك الداعية أو الواعظ أو المرشد أنْ يكون في مقدمة ما يدعو إليه فلا يوجد إلا حيثُ يقول، فإن خالف سلوكه قوله فقد فشل في مهمته فشلاً ذريعاً؛ لأنَّ الإنسان الذي لا يستطيع أنْ يرشد نفسه لا يستطيع أنْ يرشد الأخرين، ومن فقد الاستقامة في نفسه لم يتمكن من تقويم الناس [11].

وهذه أشق مرحلة على الداعية أو المرشد وهو أن يبلغ المحتوى نفسه بأنْ يُعرِّف الناس المعروف ثم يلتزم بإتيانه، وأنْ يعرف المنكر ثم يلتزم باجتنابه.

2) **المُخاطَب (المدعو)**: وهو المتلقي للخطاب الدعوي، وهم عموم الناس بلا تمييز، وهذا المتلقي تتوزعه الهموم والدعوات ولا مطمع في إسماعه ما لم يصغ بفؤاده وما لم يجد في كلام الداعية ما يستهويه ويجيب عن تساؤلاته ويلامس همومه؛ لذلك ينبغي ألَّا تقتصر الدعوة والإرشاد على الوعظ في المسجد، وكذلك الوعظ في المناسبات، بل ينبغي أنْ تكون في كل المجالات والمؤسسات، فالمعلم في **التعليم والتربية** عليه أنْ يعرف أنَّ تلاميذه هم جميع أفراد الشعب بمستوياتهم وعقلياتهم ومداركهم المختلفة، وبأخلاقياتهم المتباينة، وبأعمالهم المتفرعة، وبمصالحهم المتشابكة، ومشاكلهم المتشاكسة، وعليه أنْ يعرف أنَّ في تلاميذه مَنْ هو راغب حريص مجد، ومَنْ هو راغبٌ غير مجدّ، ومن هو مهملٌ لا يبالي، ومن هو كاره معرض، ولكن عليه وهم بهذه الصورة القلقة أنْ يقودهم بحكمة غير مُنفِّرة في دروب الاستقامة حتى يُسلسوا القياد لأمر الله، ويتنافسوا على طاعة الله، ولن يكون ذلك إلا بعد أنْ يحصل منهم على الثقة والمحبة والاحترام [12].

فإقناع الناس بأنْ المعروف معروفًا يجب عليهم إتيانهُ، وإقناعهم بأنَّ المنكر منكرًا يجب عليهم اجتنابه والابتعاد عنه، أمر ليس بالهين في نظر الشيخ علي معمر منبهًا على أنَّ هناك مرحلة أكثر مشقة؛ لذلك يرى الشيخ ضرورة تنبه الداعية لسلوك المجتمع في باب المعروف والمنكر وإدراك خضوعه لمؤثرات خاصة، فيعلم

(11) انظر معمر، علي يحي: التوعية الدينية (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) مخطوطة بخط المؤلف، مصورة إلكترونيًا، وقد كتب أغلب فصولها كما أشار المؤلف في عام 1973م، ص 30.

(12) انظر معمر: التوعية الدينية ، ص 30.

أن المجتمع أحيانًا يفرق بين المتماثلات ويجمع بين المتناقضات والمختلفات، وقد يتشدد في إنكار منكر ويتساهل في منكر أشد منه، وقد يتمسك بمعروف ويتهاون في معروف أوكد وأوجب منه [13].

3) **الخطاب (المحتوى)**، وهو موضوع الدعوة، والمقصود به الإسلام وتعاليمه، ويدخل ضمن هذا الخطاب الدعوي عدة أنواع من الخطاب، منها:

-خطاب الترغيب والترهيب الذي يركِّز على الوعد والوعيد، والجزاء والعقاب.

-الخطاب القصصي المهتم بذكر قصص الأمم والأشخاص.

-الخطاب العقلاني الذي يدعو إلى التفكر والتأمل، وذكر الحجج والبراهين العقلية.

-الخطاب العاطفي المعتمد على إثارة المشاعر والأحاسيس، ودغدغة العواطف.

-الخطاب التشريعي المهتم بذكر التشريعات، وأحكامها، وتفصيلاتها، وأسرارها، وحِكمها.

-الخطاب التوجيهي الذي يركِّز على ما ينبغي فعله، وتجنُب ما ينبغي تركه.

وهذا الخطابات الدعوية إما أن تكون:

-خطابا دعويًا فرديًا. مُتَسِمًا بالمرونة في التعامل، والتلقائية والعفوية، واتّساع رقعة النشاط، وسهولة الخطاب، وبُعده عن التعقيد.

-خطابًا دعويًا جمعيًا. متسمًا بالوضوح، قاصدًا بسيط اللغة وعميقها، مؤصلاً، رفيقًا، مرتبطًا بالواقع غير منفصلٍ عنه؛ لتنوّع جمهور المخاطبين، مفتوحة من حيث الكم، ولكنها ليست عميقة من حيث الكيف، والامتداد المكاني، وشمول جميع الأصناف ومؤسسات المجتمع، وتنوّع الأساليب، مع اتّساع رقعة النشاطات.

4) **الوسيلة** :أداة تبليغ الخطاب، وهي لا تقل أهمية عن العناصر الأخرى، إن لم تكن أهمَها، ولا مناص للدعوة من استخدام الوسائل الحضارية الحديثة، واقتحام عالم التكنولوجيا والاستفادة منها، دون إغفال الوسائل القديمة التي درج الناس عليها واستساغوها كالخطب والدروس والكتاب وغيرها...

ويمكن **تقسيم هذه الوسائل إلى نوعين أساسيين، هما:**

1 – الوسائل المادية: وهي جميع الأدوات المحسوسة، كالقول، والعمل.

2 – الوسائل المعنوية: كالصلاة، والدعاء، والتخطيط، والتنظيم.

أو تقسيمها إلى وسائل أصلية: كالقول، والعمل. وسائل مساعدة: كالمنبر، ومكبر الصوت. واللباس، واستغلال المواقف والفرص، والنظر للمدعو أثناء الحديث معه، ووسائل الإعلام بأنواعها.

(13) انظر معمر: المصدر نفسه ، ص 51.

وينبغي للداعية إلى الله ﷻ، عند اختيار الوسيلة مراعاة القواعد الآتية:

1 – أن الوسائل لها حكم الغايات، فلذا لا بد من مشروعية الوسيلة.

2 – درء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

3 – دفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما.

4 – الإتيان بأعظم المصلحتين إذا لم يمكنا معاً.

المحور الثاني: الخطاب الدعوي عند الشيخ علي يحي معمر بين التنظير والتطبيق.

اتخذ الخطاب الدعوي عند الشيخ علي يحي معمر مسارًا جمع فيه بين التنظير والتطبيق؛ وذلك لما حازه من استعداد فطري أهله لحمل لواء الدعوة، ومخزون علمي في الحقل الدّيني والأدبي والاجتماعي، جمع فيه بين الأصالة والمعاصرة كما هو واضح من خلال نتاجه العلمي على جميع الأصعدة، ويظهر ذلك منذ نشأته العلمية المبكرة في جربة والزيتونة بتونس، ثم في معهد الحياة بوادي ميزاب بالجزائر.

وتظهر معالم هذا النبوغ والتَّمكُّن في الفترة الميزابية المبكرة من عمره بمعهد الحياة، حيث شارك في جميع مجالات النّشاط بمعهد الحياة: من دروس وجمعيّات أدبيّة وفرق فنيّة ورياضيّة ومسرحيّة، بل برز كاتبًا وشاعرًا وناقدًا في صفحات جريدة الشّباب، وهو لا يزال طالبًا في معهد الحياة.

وعُرف كاتبًا بارزًا في المعركة الأدبيّة التي احتوتها جريدة الشّباب، التي كان يصدرها طلبة المعهد، والتي قامت بين أنصار الرّافعي وأنصار العقّاد في الثّلاثينيّات من القرن العشرين، فكان هو رافع لواء العقّاديّين، وزميله الشّيخ محمد عليّ دّبوز (ت 1402هـ/1981م) رافع لواء الرّافعيِّين، على غرار ما ثار من معارك أدبيّة بين أنصار العقّاد وأنصار الرّافعي في مجلّة الرّسالة المصريّة، ولم يكتف الشّيخ عليّ يحي معمّر بذاك الحراك والنشاط، وبما كان ينشره في جريدة الشّباب بمعهد الحياة، وإنما نشر مقالاته الدّينيّة والاجتماعيّة والتّاريخيّة والأدبيّة في مختلف الجرائد والمجلّات، خاصة: المسلمون، والأزهر، والرّسالة، والأسبوع السّياسي، والمعلّم، وغيرها... [14].

وبعد رجوعه لوطنه نالوت بجبل نفوسة بالدولة الليبية اهتم بإلقاء الدروس والمواعظ في صفوف العامّة والطّلبة بمساجد نالوت، عملاً بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [15].

(14) انظر الشيخ بالحاج، قاسم بن أحمد: الشيخ علي يحي معمر أضواء على شخصيته وفكره، جمعية التراث، القرارة – ولاية غرداية– الجزائر، ط1، 1424هـ – 2003م، ص 37.

(15) انظر عون الله، سليمان: ترجمة حياة الشيخ علي يحي معمر (مخطوط)، 1991م، ص4.

كما أسس جمعية الإصلاح التي قام من خلالها ببعض الأعمال الدعوية كإلقاء المحاضرات وعقد الأمسيات والاجتماعات، وإقامة بعض المسرحيات والتمثيليات وغيرها من الأنشطة [16].

ولم يهمل الشيخ علي معمر في بداية مسيرته الدعوية النشاط في المجال السّياسي بل اهتم به بدافع من الحسّ الوطني لخدمة الوطن وقضاياه وشبابه إلا أنه سرعان ما اعتزل السياسة وما يتعلق بها وتفرغ للدعوة والإصلاح [17].

وَاصَلَ الشيخُ الدعوة بعد رجوعه إلى وطنه وظلّ يناضل ويجاهد في ميدان نشر الفكر الأصيل، والتّوجيه والإرشاد والتّوعيّة، والدّعوة إلى وحدة المسلمين إلى أنْ قدَّم منظومة من الكتب والرسائل الهادفة الموجزة أغنى بها المكتبة الإسلاميّة، وصحح فيها العديد من المفاهيم، وحقق فيها العديد من المسائل، هذه المؤلفات تزيد عن عشرين مؤلفًا بين مطبوع ومخطوط ومسوَّدة، عدا المشاركة في التّعليقات والتحقيقات للعديد من المخطوطات بالإضافة إلى الرّدود والمقالات والقصائد والأناشيد والأجوبة والفتاوى والرسائل الإخوانية بينه وبين مشايخه وطلبته وبينه وبين علماء الأمة لو جُمعت وفُرِّغت لكانت رصيدًا علميًا ومصدرًا تاريخيًا للكثير من الوقائع والأحداث.

إنَّ هذا الرصيد الدعوي الهائل للشيخ عبر المحطات المتعددة في حياته تستدعي منا تقسيمها إلى جانبين رئيسين يتوزعان بين التنظير في تلك المؤلفات والدراسات والأبحاث التي قدمها، وبين تطبيق وتنزيل ذلك على أرض الواقع.

أولاً: الجانب التنظيري للخطاب الدعوي عند الشيخ:

يظهر الجانب التنظيري للخطاب الدعوي عند الشيخ علي معمر في الوسائل والأساليب المقروءة والتي تشمل: الكتب والأبحاث والدراسات والأجوبة والفتاوى، فقد عُرف الشيخ علي معمر منذ مطلع حياته العلمية بقلمه السيال، وإنتاجه الغزير، واشتُهر بأسلوبه المتميز الذي يجمع بين الإثارة والبساطة، ويجمع بين مخاطبة العقول والقلوب بطريقة جذابة ساحرة، وامتاز في كتاباته بالمناقشة العلميّة الهادئة الهادفة والجدل المقنع، اللّذان ينبعان من الكفاية العلميّة والأصالة في التفكير، والاقتناع بالمبادئ التي يعتنقها، والاستجابة لقوله تعالى: { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}[النحل: 125].

وتمتاز مؤلّفاته باللّغة البسيطة والأسلوب الممتع، والعرض الجيد، والتحليل العميق، ساعده على ذلك ارتواءه من معين القرآن الكريم والأدب العربي القديم في أمهات مصادره؛ كما أسعف قلمه ثقافته الواسعة، وبيانه

(16) انظر عون الله: المصدر نفسه، ص4.

(17) انظر عون الله المصدر نفسه، ص4.

الساحر، ومعارفه المستفيضة، فترك للمكتبة الإسلامية العديد من البحوث والمؤلفات المتميزة، هذا عدا مقالاته وقصائده التي نشر بعضًا منها بالصحف العربية، ونشر بعضها الآخر في مجلة الشباب الصادرة بمعهد الحياة في الأربعينيات.

وقد ظهرت آثار جهوده في البحوث التي أخذت تصدر من حين إلى آخر بأقلام أكاديمية نزيهة تنشد الحقيقة بكل تجريد، فصحح كثيراً من التصورات الخاطئة، وصوَّب أخطاءً فادحة، وأبان عن حقائق تاريخية ناصعة.

مؤلفات الشيخ علي معمر:

1. الإباضية في موكب التاريخ.
2. الإباضية بين الفرق الإسلامية
3. سمر أسرة مسلمة.
4. الميثاق الغليظ .
5. الفتاة الليبية ومشاكل الحياة.
6. الأقانيم الثلاثة أو (آلهة من الحلوى).
7. الإسلام والقيم الإنسانية.
8. فلسطين بين المهاجرين والأنصار .
9. أجوبة وفتاوى .
10. صلاة الجمعة.
11. أحكام السفر في الإسلام .
12. مسلم، ولكنه يحلق ويدخن.
13. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (التوعية الدينية).
14. الحقوق في الأموال.
15. الإباضية مذهب إسلامي معتدل.
16. ثلاثة دواوين شعرية، بقي منها فقط ما نشر في الصحف والمجلات بسبب إحراقه لها.
17. مسرحية (ذي قار).
18. مسرحية (محسن).

الكتب التي شارك في تحقيقها والتعليق عليها

قام الشيخ علي معمر بالمشاركة في تعليقات، وتحقيقات لبعض كتب التراث، منها:

1. تعليق على كتاب الصوم من تأليف أبي زكريا يحيى الجناوني.
2. تعليق على كتاب النكاح من تأليف أبي زكريا يحيى الجناوني.
3. مقدمة منهجية مهمة، قدم فيها لكتاب سير مشايخ نفوسة الذي قام بتحقيقه الدكتور عمرو النامي.

المقالات والأبحاث التي قام بنشرها في المجلات:

للشيخ العديد من المقالات والأبحاث قام بنشرها في المجلات الإسلامية والعربية، وأهمها:

1. مجلة الشباب لمعهد الحياة بالقرارة.
2. مجلة المسلمون، يصدرها المركز الإسلامي بجنيف، سويسرا.
3. مجلة الأزهر يصدرها مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، القاهرة.
4. الأسبوع السياسي، والمعلم، تصدران بطرابلس، ليبيا.
5. الرسالة، يصدرها أحمد حسن الزيات، بالقاهرة.

ومن أهم الأبحاث:

1. بحث رد فيه على مذكرة للشيخ خليل محمد خليل المزوغي بعنوان: في بيوت الله مع القرآن والدعاء.
2. بحث حول اللحوم المحرمة مشروع للمناقشة.
3. بحث قيم حول أجوبة أبي يعقوب يوسف بن خلفون.
4. بحث حول الإباضية قدمه إلى موسوعة الحضارة العربية.

هذا بالإضافة إلى كتب أخرى للشيخ لم يكملها أو لم يتفرغ لتحريرها وصياغتها، فلم تر النور ولم تطبع [18].

- منها: ما ذكر في بعض رسائله أنها جاهزة وتحتاج إلى مراجعة ثم الطباعة.
- ومنها: ما بقيت على شكل مسودات لم يكملها، كرواية الشهيد الأول، والجزء الثاني لكتاب سمر أسرة مسلمة عن الحج، وحياة المؤمن النجاسات والطهارات، وأخرى في شرح عقيدة التوحيد.
- ومنها: رسالة في الزكاة، وبقايا لحلقات كتاب الإباضية في موكب التاريخ، والإباضية في الأندلس وفي زنجبار والجزيرة العربية.
- ومنها: ما كان على شكل بحوث ومقالات، كما هو الحال في بحث مقاصد الشريعة الإسلامية، وبحثه المطول والمرقون الذي ناقش فيه قانون الأحوال الشخصية باعتباره أحد أعضاء مراجعة هذا القانون.

(18) معظمها موجودة عند حسن معمر ابن الشيخ علي.

– ومنها: ما كان على شكل أجوبة وفتاوى مثل: فتوى عن فوائد المصارف التي تؤخذ عن السلف التي تمنح للمواطنين لغرض التجارة أو البناء، وجواب عن حكم زواج بالمزنية بها.

وله العديد من المراسلات مع مشايخه: الشيخ بيوض، الشيخ أبي اليقظان، الشيخ عدون شريفي، وطلابه وإخوانه كالدكتور عمرو النامي، الشيخ عمرو أحمد الباروني، ومحمد أحمد الباروني، يوسف أيوب الباروني، وعلي محمد العزابي، ومحمد سعيد العزابي، وأحمد مشكان، والشيخ علي الشاوش، والشيخ أحمد مسعود الكباوي، وكذلك إلى بعض أبنائه كمحمد وحسن، ولو جمعت لكونت مجلداً ضخماً، وهي تعدُّ وثائق تاريخية مهمة [19].

ويظهر الجانب التنظيري للخطاب الدعوي لدى الشيخ علي معمر في هذا النتاج العلمي الضخم من خلال معالجته لعدة قضايا تتعلق بمساقات متعددة أهمها:

➢ **المساق الفكري والعقدي:** يظهر اهتمام الشيخ علي معمر بالخطاب الدعوي التنظيري من خلال المساق الفكري والعقدي في كتاباته وبحوثه ومقالاته ظهورا بارزا، حيث اهتم فيها بتناول قضايا عقدية وفكرية تحتاج إلى وقفات ومناقشات علمية تخدم حقل الدعوى وتزيل الركام والغبش عن الخطاب الدعوي، وذلك عن طريق تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة التي توارثها المسلمون بسبب التعصب المذهبي، والاهتمام المفرط بعلم الكلام وحصر قضايا العقيدة في بعض المسائل الخلافية والقضايا الجدلية التي تزيد القلب قساوة، فعرض المساق الفكري والعقدي بعيدًا عن المجادلات والحوارات العقيمة التي لا تساهم في النهوض والرقي بالخطاب الدعوي ومن أهم الكتب التي تناول فيها القضايا التي تخدم خطابه الدعوي:

● **كتاب سمر أسرة مسلمة:** وهو من أبرز المساقات الفكرية والعقدية حيث عرض فيه الشيخ أهم قضايا العقيدة لفئة عمرية مبتدئة بأسلوب أدبي ميسر سهل الفهم، وتحليل مبسط في متناول الإدراك لأهم قضايا العقيدة، وشرح لبعض المصطلحات العقدية المستعصية، ومعالجة بعض القضايا الفكرية التي شغلت الشباب المسلم في ذلك الوقت ولا تزال، حيث ساق فيه المباحث على طريقة الحوار لتكون أخف على المتلقي وأشوق له لمواصلة القراءة، آملا أن يجدوا فيه أثيراً من حقائق التوحيد معروضة عرضاً واضحاً بأسلوب سهل، وإن غلب على الكتاب بعض الإعادة والتكرار إلا أنَّ الشيخ قصد من ذلك ترسيخ بعض المعلومات في ذهن القارئ العادي الذي لم يدرس علم التوحيد دراسة مستفيضة على مشايخ العلم، كما أنه حوى بعض المناقشات عن مسائل لا

(19) حصلت على بعض تلك الرسائل التي أرسلها لبعض مشايخه وأصدقائه.

تتعلق بالتوحيد إلا أنها تدخل في الثقافة الإسلامية العامة ساقه إليها أسلوب الحوار الذي اعتمد عليه في الكتاب والتي كان لها ارتباطاً قوياً أو ضعيفًا بأصل الموضوع[20].

تناول الشيخ تلك القضايا والمسائل باستخدام أسلوب الحوار بين أفراد الأسرة المكونة من الابن نجيب والأب والأم، مع تعمُّد تكرار بعض المسائل قصد ترسيخ المعلومات في ذهن القارئ العادي الذي لم يدرس علم التوحيد دراسة مستفيضة.

وقد توزعت المباحث العقدية التي تناولها في الكتاب على اثني عشرة ليلة، أخذت شكل سمر أسري، بداية من أول واجب على المكلف من الغسل والإيمان بالله ومعرفة توحيده، وما يجب في حقه تعالى وما يجوز وما يستحيل، ثم الإيمان بالأنبياء والرسل والكتب المنزلة والملائكة، والموت والبعث، والقضاء والقدر، والولاية والبراءة، ... إلى معرفة تحريم مسايرة الفساق والمنافقين ومقارفة المعصية واستحلالها، وما يتعلق بها من موضوعات كالمستحل لما حرم الله، والمقارف للمعصية، والتفاوت في المعاصي حكم المستحل بتأويل الخطأ، وأحكام الناسي والجاهل والعاصي والمشرك، والمنكر لحكم من أحكام الإسلام، وكذلك معرفة كبائر الشرك والنفاق، والطاعة والمعصية والمن والدلائل، والخوف والرجاء، وولم يغفل عن بيان مفهوم الإيمان والإسلام والتوحيد، ومعرفة مصادر التشريع الإسلامي، ومعرفة أسس الإسلام وقواعده وأركانه، ومعرفة ما تميز به الدين، وحرزه وحدوده[21].

وبذلك يظهر لنا أن الطابع الغالب على كتاب سمر أسرة مسلمة، هو الطابع التعليمي التربوي، جاء محتواه في شكل حوار أدبي بين أفراد أسرة مسلمة حرصت على تعليم الابن أهم ما ينبغي أن يعرفه على كل مسلم من أمور دينه خاصة عند بلوغه، يطرحه الأب المربي والخبير بشؤون الحياة، على ابنه الذي أشرف على مرحلة البلوغ والتكليف، بأسلوب سلس وسهل يستوعبه البالغ من النشء وغيره، ويفهمه بسهولة ويسر.

كما تخلل هذا الحوار طرحه للأسئلة والإجابة عليها؛ تقريبا للفهم، مُدعما ذلك الحوار الشيق بالحجة والبينة وبوسائل الإقناع المعتمدة على ضرب الأمثلة التي لا تخلو من الطرفة والدعابة التي تطرد الملل والسأمة على السهرة.

وقد أجاد الشيخ علي معمر في اختياره لشخصيات الحوار، حيث جعل الابن المشرف على البلوغ بـ(نجيب) ذا قدرة على الاستيعاب والمناقشة، وطرح الأسئلة في وقتها وفي مكانها، مُضفيًا على تلك الجلسات الحوارية ما

(20) انظر معمر، علي يحي: سمر أسرة مسلمة، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، السيب – سلطنة عمان، 1435هـ – 2004م، ط3، ص12، 13.

(21) كل هذه الموضوعات لم يتناولها الشيخ علي معمر على شكل عناوين ومباحث وإنما تخللت حواره ونقاشه مع الابن نجيب والأم ضمن الليالي الاثنى عشر انظر المصدر السابق.

يتناسب معها من واقع مجتمعه كـ (إبريق الشاي ومختلف الحلويات..) للسهر وطلب العلم، وحفظ المسائل، والتي زادت السهرة ألفة ومودة. إلى جانب عناصر التشويق التي تجعل الحوارات هادفة، وتساعد على تأسيس القواعد الراسخة الثابتة للمجتمع وللأمة الإسلامية.

وعلى الرغم من غلبة القضايا العقدية على الحوار والمناقشة إلا أنه لم يخلُ من طرح بعض المسائل الفقهية، خاصة في موضوع الطهارات، وبعض النواحي الفكرية والأخلاقية التي تدخل في عموم الثقافة الإسلامية إثراء للحديث ودفعا للملل والسآمة، وطردا للنعاس والكسل، وقد سار الشيخ على نفس النمط في معالجة بعض الموضوعات الفقهية كالحج حيث أفرد له مساحة كبيرة في سمر هذه الأسرة سار فيه على نفس الأسلوب والمنهج إلا أنه لم يتمكن من إتمامه وطباعته [22].

- **الإباضية بين الفرق الإسلامية:** على الرغم من غلبة تركيز الشيخ فيه على مسائل خلافية بين الفرق الإسلامية في العقيدة وعلم الكلام والسياسة الشرعية، وكذلك مناقشة إشكالية المصطلحات، إلا أنَّه لم يخلو من خطاب دعوي موجهة للفئة المتخصصة والمثقفة، حيث سعى فيه إلى تصحيح المفاهيم الخاطئة التي يجب أن تنتهي وتختفي من الساحة الفكرية عند المسلم في عصرنا هذا، معتبرًا أنَّ الكُتَّاب القُدامى يسعهم من العذر ما لا يسع الكتاب المعاصرين، محاولاً رأب الصدع في بناء الأمة الإسلامية، ووضع لبنة التقارب بين المذاهب، موظفًا ما وَهَبَه الله من عقل نير، وبصيرة نافذة، وقلب مؤمن يسع المؤمنين جميعًا، منبها إلى استحالة الوصول إلى وحدة المسلمين، والتقريب بين المذاهب، الإسلامية ونبذ التعصب بينها إلا عندما يعلم أتباع جابر وأبي حنيفة ومالك وأحمد والشافعي وزيد وجعفر أنه لا مزية لأحدهم على الآخر إلا بما قدمه من عمل صالح خالص لوجه الله(23).

وأثناء مناقشاته لأصحاب المقالات والباحثين الذين تحدّثوا عن المذاهب الإسلامية بما فيها المذهب الإباضي بيَّن أنَّ تحاور المسلم مع أخيه المسلم بعيداً عن اللزوميات الكلامية وسبق إصدار الأحكام والتوجس والتشنج من الآخر أو التشنيع عليه حتى يخلق مجالاً حيوياً للتأثير في الآخرين " فإذا استقام التاريخ الإسلامي، وعَرَضَ كلُّ أصحابِ فرقةٍ من فرق الإسلام عقائدَ تلك الفرقة، وأحداثَ تاريخها، ومدى ارتباطها بمصدرها الأول عرضاً واضحاً صريحاً، وأُزيلتْ عنها ما ألصقته بها الدعاية المغرضة، أو الجاهلة، أو المستغفلة، وجد جميع أصحاب

(22) نسخة غير مكتملة مكتوبة بخط يد المؤلف.

(23) انظر معمر، علي يحي، الإباضية بين الفرق الإسلامية، مكتبة الضامري، السيب: سلطنة عمان، ط3، 2014م، ص2.

الفرق في جميع مواطن الإسلام، أنهم متشابهون كل التشابه، فهم منطلقون لتحقيق الرسالة الخالدة التي أُنيطت بهم، في طريق واحدة، أوفي طرق متشابهة، منتهية إلى غاية واحدة"[24].

فدعى إلى ضرورة إعادة صياغة الشخصية الإسلامية وتصورها الصحيح حتى يكون تصورًا قرآنيًا مبنيًا على الأدلة اليقينية لا على الأوهام والأفكار الخاطئة "وفي ظلِّ الأخوَّة والسماح تغيب التحدِّيات وتجد القلوب نفسها تحاول أن تصحِّح عقيدتها وعملها بالأصل الثابت في الكتاب والسنَّة غير خائفة أن يقال عنها تركت مذهباً أو اعتنقت مذهباً"[25].

- **الإباضية في موكب التاريخ:** يظهر الخطاب الدعوي عند الشيخ علي في هذا الكتاب من خلال تناوله العديد من القضايا الفكرية وبعض القضايا العقدية خاصة في الحلقة الأولى والثانية من القسم الأول، فناقش فيه مسألة الناجي والهالك من الفرق، وإشكالية المذاهب الدينية والمذاهب الفلسفية، وقضية الإسلام عقيدة وقول وعمل، وموضوع الولاية والبراءة والوقوف، وكفر النعمة، ومسالك الدِّين، "المقياس الحقيقي الذي نقيس به الخطأ والصواب، والميزان الصادق الذي نزن به العقائد والمذاهب والآراء والأعمال، فنعرف مقدار صحتها، ومدى قربها أو بعدها من الصواب، فإنما هو الميزان الذي وضعه رسول الله ﷺ: [لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله وسنتي] هذا هو المقياس الصحيح، الذي لا يتغير، ولا يتهم، ولا يخطئ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. من أراد أن يعرف صحة عقيدة أو زيغها، وقربها من الحق أو بعدها، فليعرضها على هذا المقياس، وليحكم حينئذ بما يتبين له، وليدع جانبا تقارب الفرق والطوائف من بعضها وتباعدها، ولينبذ أسماءها وألقابها، فإن كل ذلك لا يغني من الحق شيئاً"(26).

وعلى الرغم من غلبة الطابع التاريخي في هذا الكتاب إلا أنَّ الشيخ علي معمر لم يكن يرمي من كتابة فصوله إلى الكشف عن الناحية السياسية للمذهب الإباضي، فإنَّ الحركة السياسية في نظره أقل أهمية من الجوانب الأخرى؛ ولذلك كان حديثه عنها باعتبارها ظواهر وأعراض لتطبيق المبادئ تطبيقا صحيحًا سليمًا في حياة الإباضية، حياتهم العلمية، وبيَّن بها الفرق بين الفِرق التي يكون مسلكها صورة تطبيقية لعقائدها ومبادئها، والفرق التي ترى بونا شاسعا بين مسلكها وبين دعاويها في اتباع الاسلام والعمل بأحكامه، وذلك من خلال

(24) معمر، علي يحي: الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى: نشأة المذهب الإباضي، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط1، 1384هـ - 1964م، ص 19.

(25) معمر، علي يحي: الإباضية بين الفرق الإسلامية، ص 2.

(26) انظر معمر، علي يحي، الإباضية في موكب التاريخ، ص 39.

عرضه للحياة الحافلة فيما يدعو إلى الإيمان بالله من مُثُلٍ وأَخلاقٍ و أَعمالٍ مخافةَ اللهِ، وجهاد في سبيله، وعمل صالح مستمر للبناء الذي شيَّده الإسلام ورفع قواعده الكتاب الكريم وحافظ عليه محمد ﷺ.

وهو ما أراد الشيخ علي إثباته من خلال عرضه لبعض النماذج التاريخية للمجتمع الإباضي، والتراجم القصيرة لعلمائهم وقادتهم عَبْرَ حياتهم الحافلة بالخير، والاهتداء، والسيرة الرشيدة، والعمل الصالح (27).

➢ **المساق الاجتماعي والتربوي:** ويظهر الخطاب الدعوي لدى الشيخ في هذا المساق في العديد من كتبه التي عالج فيها بعض القضايا الاجتماعية والتربوية ككتاب "الأقانيم الثلاثة" أو "آلهة من الحلوى" وكتاب "الفتاة الليبية ومشكل الحياة" وكتاب "الميثاق الغليظ"

● **الأقانيم الثلاثة أو "آلهة من الحلوى"**: ركز فيه الشيخ علي معمر على قضية الطفل والمرأة والحاكم، فتحدث فيه عن الحقوق والواجبات في شأن كل منهم، كما أشار إلى أنَّ الأقانيم لا تنحصر في هؤلاء الثلاثة، بل تتجاوز إلى كل ما تعاملنا معه بعقلية "الأقنوم" وعالجناه بروح "الإله" (28).

وقد كان حصر الشيخ لمشكلة البشرية الأولى في هذا العصر، ولا سيما في الدول النامية، في الطفل والمرأة والحاكم، وأطلق عليها اسم الأقانيم الثلاثة؛ باعتبار أنَّها أصبحت الأصول الثلاثة لنشاط الإنسان في عصرنا الحاضر، كما أنَّ وراء الاهتمام بهذه الأقانيم في مجموعها أو بكل واحد منها على جانب، تكمن رغبات محددة تُبذل من أجلها الجهود، وتولى الخدمات، فالشيخ يرى:

– أنَّ وراء الاهتمام بالطفل وتقديم الخدمات له تكمن رغبة ملحَّة، هي كسب عنصر يحقق السير في منهج محدد يمكن الاستفادة منه على أوسع نطاق عندما يقوى هذا الطفل ويشتدّ، ويحين أوان القطاف.

– وأنَّ وراء الاهتمام بالمرأة وتقديم الخدمات لها دون حدود تكمن رغبة ملحَّة، هي الحصول على متعة غير مقيَّدة والاستفادة من خصائص فطرية لا توجد إلا عند المرأة، والاستعانة بها على مكاسب مادية لا تتحقق إلا على يديها.

– وإنَّ وراء الاهتمام بالحاكم وتقديم الخدمات له رغبة ملحَّة، هي الاستفادة المادية أو المعنوية في وجوده، والاستفادة بمكانه عند العمل على طرحه وإبعاده. (29).

فالعناية بالطفل والمرأة والحاكم، في الواقع، إنما تنبعث من دوافع مصلحة مظهرية تمهد لتسخيرهم فيما بعد للحصول على نتائج محدّدة دون الاهتمام بمصيرهم بعد الحصول على تلك النتائج، أي أنَّ المجتمع يبني من

(27) انظر معمر، علي يحي، الإباضية في موكب التاريخ، ص 141، 142.

(28) انظر معمر، علي يحي، الأقانيم الثلاثة (آلهة من الحلوى) د: ط، ص2.

(29) انظر معمر: الأقانيم الثلاثة، ص2.

الطفل والمرأة والحاكم آلهة من الحلوى يقدم لها القرابين ويظهر لها الطاعة، فإذا وصل معها إلى مرحلة معينة فتحصل على النتائج المطلوبة أو شعَر بالحاجة إلى إزالتها من طريقه سارَع إلى تلك الآلهة من الحلوى فالتهمها واستقبل بعنايته آلهة جديدة يشكلها من جديد (30).

والمتبادر إلى ذهن القارئ لعنوان هذا الكتاب ولأسلوب الشيخ علي معمر ومنهجه أنه دراسة فلسفية، أو بحث علمي يرتكز على أسس وقوانين، إلا أنَّ الشيخ حرص فيه على أنْ يكون عرضا وتصويرا لواقع بعضه موجود عندنا وعند غيرنا، وبعضه موجود عندنا فقط، وبعضه موجود عند غيرنا، ومنه ما يتسرب إلينا في طمأنينة وسهولة ويسر (31).

فالكتاب عبارة عن صور معروضة في المجتمع يراها ويحسّ بها أراد عرضها على القارئ بأسلوب تربوي فلسفي يريح النفس ويرغبها في متابعة موضوعاته في شوق ولهفة، ويعيد تصوره لها في تأمل وتدبر، مدعِّمًا ذلك بطريقة المتميزة في العرض أو في استعمال الأسلوب الصريح البالغ الصراحة – لا سيما في موضوع المرأة – حتى يفكر كل ذي فكر حر مستقل في مشاكل المجتمع الإسلامي، ابتداء من الخطوة الأولى في تربية الطفل، ثم يتخذ لنفسه في ذلك موقفاً ينسجم مع تعاليم الإسلام الحق (32).

- **الفتاة الليبية ومشكل الحياة:** عالج فيه قضية المرأة من حيث كونها مظلومة أو محرومة من التعليم، وتخيرها في أمور الدراسة والزواج، والتعدد والطلاق، وكذلك مناقشة قضية عملها، وما يتعلق بالحجاب والسفور عند خروجها. حيث تناولها ضمن الإطار الاجتماعي والتربوي والسلوكي وفق المنهج الإلهي الذي رسمه في محكم كتابه وفي هدي نبيه ﷺ بأسلوب شائق سلس ميسر.

وفصول الكتاب في أصله عبارة عن أحاديث خاصة بين أب وابنتيه، مما يدور بين أفراد الأسرة في البيت عادة، وبعد دراسة القضايا المتعلقة بتلك الأحاديث دراسة وافية معتمدا فيها على المنهج الإسلامي لمعالجة مشاكل الحياة، ومنبهًا إلى أنَّ المشكلة التي لم تعالج بالحلول الإسلامية لن تحل أبدا بغيره. وعبر عرض ومناقشة مغالطات الذين كتبوا عن قضية المرأة من أبناء وبنات الإسلام الذين كتبوا عنها بحسن نية، محاولين دفعها بسرعة في طريق الحضارة الغربية المنحرفة، بما فيها من المزالق والأشواك.

ولم يغفل الشيخ في هذا الكتاب عرض شبهات الذين كتبوا عن قضية المرأة بسوء نية وبتفضيل الآراء البشرية على ما نزلت به شريعة الله – بتبجح ووقاحة – ومناقشتها مناقشة علمية وفق المنهج الاجتماعي

(30) انظر معمر، المصدر نفسه، ص2.

(31) انظر المصدر نفسه، ص2.

(32) انظر المصدر نفسه، ص2.

والتربوي الذي يفضح فخ الخديعة التي نصبت للفتاة المتعلمة أولا وبالذات، فخدعوها بخرافة الظلم ونيل الحقوق، فانزلقت في الفخ وأسلمتها الخطوة إلى الخطوة حتى وجدت نفسها وقد قطع عنها خط الرجعة؛

– إما لأنَّ القيم التي كانت تعتز بها قد ذابت في نفسها واضمحلت من ضميرها، فمات فيها الشرف والكرامة.

– وإما لأنها عسر عليها الرجوع، وكبر عليها أن تكذب نفسها بعد فترة من الكفاح والجهد فتظاهرت بالمضي في الطريق والحسرة والأسف والندم يملأ قلبها. وإما لأنها حقدت على المرأة والمجتمع فأرادت أن يتردى غيرها فيما تردت فيه (33).

فكانت الفئة المستهدفة في الكتاب الفتاة المتعلمة سواء كنت في المرحلة الجامعية، أو في المدارس الثانوية، أو في المعاهد الفنية والمهنية، أو في المدارس الإعدادية؛ لأنها أحرى أنْ تفهم هذا الخطاب؛ ولأنها في مبدأ الطريق.

وقد استعرض القضايا المتعلقة بتلك الفتاة قضيَّة قضية لتري المواقف التي يجب أن تتخذها والمواقف التي يجب أن يقفها أولياء الفتاة.

حيث حصر تلك القضايا في المواضيع الآتية (34):

1– هل المرأة المسلمة مظلومة؟

2– هل المرأة المسلمة محرومة من التعليم؟

3– الدراسة والزواج.

4– الزواج المبكر والوظائف.

5– الحجاب والسفور.

6– الاختيار في الزواج .

7– المرأة والاشتغال في المرافق العامة.

8– التعدد والطلاق.

● **الميثاق الغليظ:** يقترب *هذا الكتاب في* مضمونه وأسلوبه مِن *كتابه* "الفتاة الليبية ومشاكل الحياة"، إلا أنه اقتصر *فيه على* مناقشة قضايا الزواج وما يتعلق بها من قضايا ومسائل اجتماعية بصبغة شرعية، مبتعدا فيها قدر الإمكان على التناول الفقهي البحث لهذه القضايا والمسائل، مركزا فيها على تصحيح المفاهيم

(33) انظر معمر: الميثاق الغليظ، ص2.

(34) انظر معمر: المصدر نفسه، ص2.

والممارسات الخاطئة التي توارثها الأبناء عن الآباء في مجتمعاتهم، فبدأ بالحديث فيه عن الخطبة والعقد والإشهاد والدُّخلة.

وحاول فيه ربط تلك القضايا والمسائل بواقع المجتمع الليبي آنذاك، مبرزًا العادات والتقاليد المتعلقة بهذه الموضوعات، مدعمًا ما توافق منها مع الشريعة، ومصححًا أو رافضًا أحيانًا لما جانب منها الصواب، وقد عرضها بأسلوب سلس بسيط غلب عليه طابع الحوار والمناقشة للآباء والأبناء، مركزا على فئة الشباب ذكورًا وإناثًا (35).

- **التوعية الدينية (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)** تناول في الكتاب العديد من القضايا والمسائل الاجتماعية والتربوية فناقش الأمور التي تتعلق بالفرد والأسرة والمجتمع، وأبرز أهم الأمور التي اختلت فيها الموازين واختلطت فيها المفاهيم من حيث علاقتُها بالتدين أو الدعوة إلى التَّمدُّن ودعوى اللهو والتسلية بالمباح، واختلال موازين الأولويات في المجتمع، وموسمية التدين، وربطه بمسار اجتماعي وسلوك تربوي معين واعتقاد أنه هو الأصل، والأساس ومنبع الصلاح والتدين.

وقد عرض فيه صورًا من واقع الحياة في المجتمع الليبي، انحرف فيه سلوك الناس عمّا رَسَمَهُ الإسلام ودعا إليه، وأمر به، مبررًا ذلك الانحراف السلوكي بغلبة الجهل على الناس في بعض الفترات، وغلبة الاستعمار فترات أخرى، وأن البعض الآخر كان سبب انحرافه تأثره بالحضارة الغربية، وكان جميع ذلك في غفلة أو عدم كفاءة أو سلبية وعدم اهتمام من أجهزة التوعية الدينية (36).

والكتاب عبارة عن ملاحظات وآراء تجمعت لدى المؤلف صاغها على شكل مقترحات وانتقادات قدمها للقارئ من خلال محورين أو قسمين تعلق الأول منها بالمآخذ على أجهزة التوعية الدينية، وتعلق الآخر بممارسات اجتماعية تكاد تكون البلوى بها عامة، وهي تقع أمام كل نظر حتى أصبح المنكر فيها مألوفاً أو معروفاً، وحتى بلغتْ إلى درجة تشترك في بعضها بعض أجهزة التوعية (37).

وقد قصد من فصول هذا الكتاب الذكرى، وَدَافِعًا للحركة، وباعثًا للتفكير فيما ينبغي عمله وفيما ينبغي تركه، ومتى يحسن السكوت ويحلو المنام، ومتى ينبغي الضجيج والدوي والكلام، فإنَّه لا يستقر على حالة واحدة إلا الأموات (38).

(35) انظر معمر، علي يحي: التوعية الدينية، ص1.

(36) انظر معمر: المصدر نفسه، ص1.

(37) انظر معمر، علي يحي، التوعية الدينة، ص1.

(38) انظر معمر، المصدر نفسه، ص2.

● **المساق التاريخي:** يظهر المساق التاريخي للخطاب الدعوي عند الشيخ من خلال ما كتبه من مباحث تحت عنوان **(الإباضية في موكب التاريخ)** والتي قدَّم فيه دراسة عامة عن الإباضية في بلدانهم المختلفة تخللتها جوانب اجتماعية لتلك المجتمعات والبلدان. قاصدًا من عرضها بصورة مقنعة دعوة المسلمين وبقوة للعودة إلى الإسلام الأصيل كما جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية، وأنْ يتركوا جانبًا أسباب الانقسام الناشئ عن اتباع العلماء المتأخرين الذي تأثروا بالخلافات السياسية. وذلك بعرض آراءهم وتاريخهم بصورة أوضح لتحقيق فهم أفضل لهم من قبل المسلمين غير الإباضيين.

والكتاب كما يصفه الشّيخ أبو اليقظان كتابًا بديعًا في فنّه، وديعًا في أسلوبه، توخى في أسلوبه الوداعة والبساطة، لا حدّة ولا عنصريّة، ولا إجحاف بحقّ الأمّة في تاريخ أسلافها، ذاهباً فيه كالسّهم رأسا إلى اللّبِّ، فاقتنصه بلباقة، وبأسلوب متواضع رصين، يأخذ طريقه إلى القلوب بدون استئذان [39].

وبهذا الأسلوب استطاع الشيخ علي معمر أنْ يعالج كثيرًا من قضايا المسلمين، ويناقش بعضًا من اهتماماتهم وانشغالاتهم، وهكذا ينبغي أن يكون الدعاة.

ثانيًا: الجانب التطبيقي للخطاب الدعوي عند الشيخ.

ينطلق الشيخ علي معمر في خطابه الدعوي من خلال بذل جهود معتبرة في القيام بالعديد من الأعمال التي رأى فيها مجالاً خصبًا للدعوة والإصلاح صحبة كوكبة من الشباب المثقف من مدينة نالوت وغيرهم من شباب الجبل، وكذلك من خلال تأسيس عدة مؤسسات تربوية، يرى فيها تحقيق الجانب الإصلاحي والاجتماعي ونشر الوعي الثقافي وفق ما تقتضيه مقومات ذلك الخطاب وآلياته، ومن أهم تلك الأعمال:

– إنشائه لـ "مجلة اليراع" والتي كانت من أهم الأعمال التي قام بها أول رجوعه للوطن صبحة المثقفين والمتعلمين من أبناء الوطن، وهي مجلة تعنى بمعالجة قضايا المجتمع عامة والشباب على وجه الخصوص، وتشجع على طلب العلم ومحاربة الجهل والتخلف، كما اهتمت بالجانب الأدبي، وكان رئيس تحريرها الشيخ سليمان عون الله، ولا شك أن لمسة الشيخ علي معمر كانت حاضرة فيها من الناحية الدعوية والأدبية وكذلك الشعرية، وبسبب الأوضاع السياسية المتوجسة من كل ما يدعوا إلى الإصلاح في ذلك الوقت أوقف صدروها بعد أن صدر منها العدد الثالث [40].

(39) من رسالة وجّهها الشّيخ أبو اليقظان إلى الشّيخ علي يحيى معمّر، مؤرّخة هكذا: الجزائر يوم 1964/09/18 م.

(40) انظر عون الله، سليمان: ترجمة حياة الشيخ علي يحي معمر (مخطوط)، 1991م، ص3، 4.

وانظر الشيخ بالحاج: الشيخ علي يحي معمر أضواء على شخصيته وفكره، ص69.

- **إنشاء جمعية الإصلاح:** وكان أول عمل مؤسسي ركز عليه الشيخ على غرار ما عايشه في النهضة الإصلاحية في الجزائر التي قامت على تلك المؤسسات التي تعمل في هذا الجانب، وقد أنشأ تلك الجمعية في مدينته نالوت، وقد كانت مؤسسة فاعلة في نشر الوعي الفكري والثقافي والاجتماعي، وعلى الرغم من تقليص مهامها فيما بعد، وجعلها ناديا اقتصر على الجانب الرياضي، إلا أنَّ الهدف الأساسي الذي أسست عليه الجمعية كان حاضرًا بين الحين والآخر، فلم تغب الجوانب الثقافية والاجتماعية عنه نهائيا، ويظهر ذلك في رسالته لشيخه أبي اليقظان المؤرخة ب 26/ 11 / 1962م التي أشار فيها إلى أنَّ اسم جمعية الإصلاح ثم آل إلى نادي الإصلاح.

ويظهر هذا دور هذه المؤسسة في الخطاب الدعوي للشيخ في الدروس والمحاضرات التي كانت تقام في تلك الجمعية (نادي الإصلاح)، وكذلك في المسرحيات والتمثيليات الهادفة التي كان يشرف على إقامتها فيها وإنْ لم يكتب لها الظهور في وسائل الإعلام الإذاعة والتلفزيون والصحافة بسبب المضايقات الأمنية والتعذر بأنه شخص غير مرغوب فيه كما نقل ذلك عن ابنه الشيخ محمد معمر [41]، إلا أنَّ آثار تلك الأعمال لا تزال دالة على تلك الجهود الدعوية التي أخذت طابعً فكريا أدبيًا أو ثقافيًا أو اجتماعيًا.

- **الرحلات الدعوية في الجبل:** على الرغم من التضيق الذي مورس ضد الشيخ علي وتلمذته ومريده إلا أنّه سار على نهج أسلافه في الدعوة الميدانية، وذلك من خلال الرحلات الدعوية في الجبل، وكان أشهرها رحلة "طمزين" التي قام بها صحبة أصدقائه وطلبته ومريديه من قرى ومدن الجبل ممن كان يتابع دروسه في جامع الفتح بطرابلس، حيث هدف الشيخ من هذه الرحلة مَدْ أواصر الأخوة بين سكان الجبل، وتعريفهم بأمجاد أجدادهم وعلمائهم، وبيان المنهج والسلوك الذي كانوا عليه، فكان كلما مرُّ ومن معه المشايخ على مشاهد أو طل من أطلال قرية من قرى الجبل إلا وعرَّف بها وبعلمائها ومشايخها، مع إلقاء الدرس التي يمزج فيها بين التاريخ وتراجم وسير العلماء الأفذاذ في تلك الربوع وما يستخلص من عبر وعظات تشحذ النفوس والهمم(42).

(41) لم تكن المعاناة التي قاساها الشيخ، في اعتقاله أو في اعتقال بعض أبنائه وأقاربه، أو اعتقال الدكتور" عمرو خليفة النامي"، تلميذه وصديقه وأقرب المقربين إليه، وإنما كانت المعاناة في المضايقات الأشد فيما كان يقوم بها المدعو "حسن أشكال"، حيث كان يمنع الشيخ من الخروج من مكتبه في شهر رمضان، حتى يكتب شيئًا يمجد فيه ما أعمال النظام السابق، وقد رفض الشيخ مرارًا، وكانت شدة "اللازمة" (ضيق التنفس) التي يعاني منها، تزيد في معاناته. وأشفق عليه أصدقاؤه ومحبوه وأقسموا عليه لتلبية ما يطلبه زبانية النظام في ذلك الوقت، فكتب مقالات أراد بها طالبوها التمجيد لما عرف "بالثورة" والدعاية لها، إلا أنَّ كل مَن يتأمل فيها يتأكد بأنها جاءت بما يكشف عن فساد نظام القذافي.

(42) راجع سلسلة دروس ومحاضرات رحلة الشيخ علي إلى طمزين والجبل.

وامتدت هذه الرحلات إلى خارج القطر الليبي وامتد تأثيره الدعوي معها، فكان منها إلى القطر التونسي وبالتحديد جزيرة جربة التي كانت نقطة الانطلاق لحياة الشيخ العلمية، فقد تردد عليها وزار معالمها ولتقى بمشايخها وفضلائها، وألقى العديد من الدروس في مساجدها، وكذلك في تونس العاصمة في الزيتونة وفي جامع الهنتاتي، أما القطر الجزائري فقد تركَّزت جهوده الدعوية في وادي ميزاب، وظهر ذلك في فترة إقامته فيها لطلب العلم، وبعد رجوعه إلى وطنه ليبيا قام بالعديد من الرحلات إليها، وألقى العديد من الدروس في مساجدها، هذا إلى جانب الحوارات والنقاشات في العديد من القضايا الدعوية مع مشايخها ومثقفيها في اللقاءات العلمية، والتي كان يستمر في بعضها الحوار إلى الفجر كما أخبرني الشيخ خليفة الشيباني المرافق للشيخ في بعض تلك الرحلات.

كما قام بعدة رحلات إلى مصر ولبنان وسورية والعراق والكويت والأردن والقدر والحجاز، وحج عدة مرات، وما زار بلدًا إلا واجتمع بعلمائه وفقهائه ومثقفيه، وتدارس معهم شؤون الدِّين ومسائله، وقضايا الفكر، وتحديات الدعوة، ودعاهم إلى نبذ الفرقة وترك الخلاف حتى اعترف له كل من التقى به وخالطه بالعلم والفضل وسعة الأفق ورحابة الصدر، وحمل هموم الأمة (43).

– **تنظيمه لزيارة الشيخ بيوض إبراهيم بن عمر إلى معظم قرى الجبل وغيره:** ولا يخفى ما حوته هذه الزيارة من فوائد جمَّة تمثلت في التفاعل الشعبي معها والمهرجان الدعوي الذي صاحب تلك الزيارة على هامش دروس الشيخ بيوض النافعة والمثمرة، والتي لم تخل من تعليقات وتعقيبات الشيخ علي صحبة الدكتور عمر النامي، والشيخ علي الخمائسي المقدمي، والشيخ علي الشاوش، وغيرهم من المشايخ وطلبة العلم (44).

– **إنشاء مسجد الفتح بطرابلس:** يعدُّ إنشاء مسجد الفتح بطرابلس من أبرز وأهم الجهود الدعوية التي مكنت للخطاب الدعوي الانتشار والتأثير في الوسط الاجتماعي على أهل الجبل القاطنين في طرابلس خاصة، وأهل طرابلس عامة، وقد كانت تلك الجهود بالتعاون مع الخيرين والغيورين على الدعوة الساعين إلى إيجاد ركن ركين لأهل الجبل في طرابلس رغم كثرة العراقيل والعقبات، فقد كان حلم الإباضيين وأهل الجبل منذ عقود عدة ومحاولات متكررة ممن سبقهم من أهل الفضل والعلم.

إنشاء المدارس والمعاهد العلمية في الجبل: ومن أبرز الجهود التي قام بها الشيخ ضمن جهاده الدعوي وسعيه في تثبيت دعائمه في المجتمع إنشاء المدارس والمعاهد الدينية، حيث كان من أبرزها تشجيعه للشيخ يحي المقدمي ومن كان معه من مشايخ نالوت على فتح مدرسة القرآنية التابعة للدولة والتي نتج عنها فيما بعد فتح

(43) انظر عون الله، سليمان: ترجمة حياة الشيخ علي يحي معمر (مخطوط)، ص5.

(44) راجع سلسلة دروس ومحاضرات رحلة الشيخ بيوض إلى جبل نفوسة.

معهد القراءات فيها، وكذلك إنشائه في جادو للمدرسة الابتدائية، ومعهد المعلمين المعروف بمعهد الشيخ إسماعيل الجيطالي الذي خرَّج المئات من المدرسين الذين انتشروا في مدن وقرى الجبل وما جاورها (45).

– **إنشاء دار الدعوة بنالوت:** وكان ذلك بالاشتراك مع ثلة من شباب الجبل وفي مقدمتهم الدكتور عمرو النامي، وقد أنشئت دار الدعوة بنالوت سنة 1971م (46)، وقد كان لها جهدًا دعويًا بارز، حيث يظهر الجهد الدعوي للشيخ علي معمر فيها من خلال طباعة العديد من الكتب الدعوية التي عرفت برسالة المسجد هذا بالإضافة إلى طباعة بعض كتب أخرى.

– **اهتمامه بالوعظ والإرشاد:** يظهر اهتمام الشيخ علي بالجانب التطبيقي للخطاب الدعوي في إبرازه للفروق الجوهرية بين ما يجب أنْ يتصف به (الواعظ) باعتباره يبعث العظة في نفس المؤمن، وهي العبرة أو الاعتبار، ومعنى الاعتبار هو: مزيج من التفكير والتذكر والمقارنة والمقايسة ثم استخلاص حقيقة من مجموع هذه الأشياء تكون دافعاً إلى سلوك معين، فالموعظة أو العبرة هي حركة في النفس نابعة من الداخل بسبب مشاهدة أو سماع أو إحساس؛ ولذلك فقد يكون الواعظ حياً وقد يكون ميتاً، وقد يكون إنساناً وقد يكون حيواناً وقد يكون جماداً (47).

فالشيخ علي معمر يرى عدم اقتصار الواعظ على الشخص الذي يُلقي الدروس على الناس يعلمهم الحلال والحرام، وإنما الواعظ هو: كل ما ذكَّر بالله وأثار في النفس أسباب خشية الله، والواعظ في الناس من تذكرهم رؤيته بالأخرة ولو لم يتكلم.

ويرى أنَّ الجانب العملي والتطبيقي للخطاب الدعوي يظهر فيمن يرشدك ويريك الطريق حتى تصل إلى مبتغاك، ومن لم يبلِّغك إرشاده على الغاية التي تقصدها فليس هو بمرشد ولا دليل؛ ولذلك فإنَّ واجب المرشد لا يقتصر على الكلام، وإنما هو كلام وحركة (أي سلوك) وعمل المرشد الديني شبيه جداً بعمل الدليل أو المرشد في مسائل الحياة، يصف لك الطريق فإنْ لم تفهم رافقك فيه حتى تصل، فالذي يقتصر على الوصف والنعت من بعيد ليس بمرشد، أو على الأقل لم يقم بمهمته كما ينبغي لهُ، فمهمته غير محدودةٍ وهو يحفظ قانون السماء لسلوك الناس، ومطالبٌ رسميّاً من الله ومن الدولة أنْ يرشدَ الناسَ إلى ما ينبغي عمله أو تركه، ولذلك فليست مهمته في كلمة يلقيها في مجمع من الناس، ثم ينتظر حتى يأتيه من يسأله عن حكم المخالفة، وإنما عليه هو

(45) راجع سلسلة دروس ومحاضرات رحلة الشيخ علي إلى طمزين والجبل.

(46) نقلاً عن الشيخ عيسى زغدود في لقاء علمي جمعني به.

(47) انظر الشيخ بالحاج: الشيخ علي يحي معمر أضواء على شخصيته وفكره، ص75.

أنْ يعرف الناس بالمخالفات التي تقع منهم وبالجزاءات التي تقع عليهم بسبب تلك المخالفات، وبالأساليب التي يتفادون بها الوقوع في تلك المخالفات [48].

فينبغي على الداعية أن يكون معلمًا ومربّيًا، فهو قدوةٌ وداعيةٌ؛ ولذلك ينبغي أنْ يكون للداعية منهجان: **الأول:** منهجٌ للسلوك من حيث هو قدوة وداعية.

والثاني: منهجٌ للعمل من حيث هو معلمٌ ومربي.

المنهج الأول: فأما منهج السلوك: فأنْ يعرف أنَّ الهفوة البسيطة منه تعتبر كبيرة وخطيئة، وأنَّه حيث يطلب من الناس القيام فإنَّه يطلب منه المحافظة على الواجب والمندوب، وإنَّه حيث يطلب من الناس اجتناب المحظور، فإنّه يطلب منه اجتناب المحظور والمكروه أيضاً، بل ينبغي لهُ أنْ يتجنب الكثير من المباح، وينبغي أنْ يكون منهجه السلوكي منهج حياة واقعية، يعيش مع الناس في أفراحهم وأحزانهم ومسرَّاتهم ليستطيع أولاً: أنْ يعرِفَهم معرفةً حقيقةً، وثانياً: أنْ يرشدَهم إلى ما ينبغي سلوكه في تلك الحالات.

ومن أوضح الخطوط في منهجه السلوكي أنْ يكون في مقدمة ما يدعو إليه فلا يوجد إلا حيثُ يقول، فإن خالف سلوكه قوله فقد فشل في مهمته فشلاً ذريعاً؛ لأنَّ الإنسان الذي لا يستطيع أنْ يرشد نفسه لا يستطيع أنْ يرشد الأخرين، ومن فقد الاستقامة في نفسه لم يتمكن من تقويم الناس (49).

فينبغي للداعية أو المرشد أنْ لا يتخلف عن صلاة في المسجد إلا لضرورة، وإذا تخلف أوضح للناس سبب تخلُّفه كأنه يعتذر عن غياب، وإذا دعا الناس إلى صدقة وجب أنْ تكون يده إلى جيبه أسرع من أيديهم إلى جيوبهم، وإذا دعاهم إلى مساعدة عملية كان من أوائل من يحضر ويستجيب لداعي الله في عمل الخير [50].

المنهج الثاني: وأما منهج العمل: وقد عبر عنه الشيخ بمنهج التعليم والتربية، حيث ركَّز على ضرورة معرفة طبيعة مستويات وعقليات ومدارك تلاميذهم المختلفة الذين هم جميع أفراد الشعب، وأبناء المجتمع، بأخلاقياتهم المتباينة، وبأعمالهم المتفرعة، وبمصالحهم المتشابكة، ويفرز مِنْ بينهم مَنْ هو راغبٌ حريصٌ مجدٌّ، ومَنْ هو راغبٌ غيرُ مجدٍّ، ومَنْ هو مهملٌ لا يبالي، ومَنْ هو كارهٌ معرضٌ (51).

(48) انظر معمر: التوعية الدينية، ص27.

(49) انظر معمر: التوعية الدينية، ص29.

(50) انظر المصدر نفسه، ص 30.

(51) انظر المصدر نفسه، ص30.

ونبَّه الشيخ أنَّ على من يقوم بالوعظ والإرشاد اتصفوا بهذه الصورة القلقة دعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة وبأسلوب تعليمي وتربوي غير مُنفِّر حتى يحصل منهم على الثقة والمحبة والاحترام، ومن ثَمَّ يُسلسوا القياد لأمر الله، ويتنافسوا على طاعته.

كما نبَّه أيضاً لمن يسلك هذا المنهج أنَّ عليه الانتباه إلى نقطة هامة في مناهج التربية والتعليم بالمدارس تحرص المناهج دائماً على لفت نظر المدرسين إليها وتذكيرهم بها تلك النقطة هي (مراعاة الفروق الفردية بين التلاميذ) محاولا ربطها بالمجتمع فإذا وجب أنْ يلفت نظر المدرس إلى الفروق الفردية في فصل واحد لعدد محدود من الطلاب متجانسين في العمر والبيئة، لمعالجة الفوارق معالجة شخصية، بحيث يسير كل طالب حسب مواهبه ومداركه واستعداداته، إذا كان هذا مطلوباً في مدرس لفصل واحد يحتوي على ثلاثين أو أربعين طفلاً، فإنْ المرشد الذي يبلغ عدد تلاميذه الآلاف موزعين في كل مكان، يتوجب عليه بصفة أهم وأوكد ملاحظة الفروق الفردية، ولذلك فإنَّ عملية الإرشاد والتوجيه في الدَّين ينبغي أنْ لا تقتصر على درس في المسجد مرتين أو ثلاثة في الأسبوع، أو على خطبة منبرية يوم الجمعة ويوم العيد، وإنما يجب أنْ تكون العملية مستمرة متواصلة ملاحقة للجماهير في المساجد، وفي جميع أماكن التجمع (52).

كما ركز على وجوب استمرار تلك العملية في متابعة ومراعاة الحالات الفردية عند ملاحظة الإهمال والمخالفة، سواء كان ذلك ناتجاً عن عمل أو عن ترك، وسواء كانت متعمدة أو غير متعمدة، إلا أن الشيخ نبَّه هنا إلى ضرورة توجيه مثل هذه الحالات بأسلوب حكيم متواضع، حتى لا يكون سبباً في النفرة أو الإثارة أو ردة الفعل، وأنْ يكون بهدوء ودون مبالغة أو استجهال حتى لا يُدفع إلى التحدي، فإنَّ أسلوب المرشد إذا تسبب في النُّفرة أو الإثارة أو التحدي كان معنى ذلك الفشل، وخسر المرشد رسالة الإرشاد (53).

ولم يفت الشيخ أنْ ينبِّه على ضرورة ربط هذه القضايا التربوية المتعلقة بمراعاة الفروق الفردية ومعالجة حالات الأفراد بأساليب حكيمة تناسب نفسيات الناس وطبائعهم، بجوانب عامرة في السنة النبوية المطهرة، فبإمكان الداعية واعظًا كان أو مرشدًا أنْ يقتبس منها مناهج للتربية والتعليم والتوجيه والتوعية ويجعلها مَعَالِمَ يهتدي بها (54).

(52) انظر معمر: التوعية الدينية، ص30.

(53) انظر المصدر نفسه، ص31.

(54) انظر المصدر نفسه، ص31،32.

المحور الثالث: آليات الخطاب الدعوي وأدواته عند الشيخ علي معمر.

تتعدد آليات الخطاب وتتنوع بتعدد وسائل طرح هذا الخطاب وأدواته، ومع ذلك فهناك جامع مشترك يمكن رصده وتحليله، خاصة إذا استبعدنا من مجال تحليلنا آليات الأداء الشفوي، وقصَّرنا تحليلنا على الآليات الذهنية والعقلية (الجانب التنظيري) التي توجد في معظم وسائل هذا الخطاب وأدواته، وتوقفنا عند ما نعدّه أهم آليات هذا الخطاب، وهي تلك الآليات الكاشفة عن المستوى الأيديولوجي لهذا الخطاب، وهو المستوى الذي يجمع بين الاعتدال والتطرف من جهة، وبين الفقهاء والوعاظ من جهة أخرى.

ويؤكد الشيخ علي يحي معمر على ضرورة إعادة النظر في دور عدة أجهزة ومؤسسات في الحوار المجتمعي وذلك بتفكيك بُنَى الخطابات الدينية؛ ربما لأنها خطابات تسعى لمغازلة الجمهور في الوقت الذي تسعى للسيطرة عليه وجدانيا وعقليًا وسلوكيًا؛ لذلك يؤكد الشيخ على أنَّ أول الجديد قتل القديم والجديد معا بالحوار والوقوف على مكمن الداء لوصف الدواء.

ونظرا لعدم وجود خطاب دعوي موَّحّد بقدر إبداء وجهة نظر أو طرح فكرة أو الكشف عن رؤية بصدد مسألة أو قضية معينة، وإنما هو خطاب يتفكك إلى رؤى ووجهات نظر تتباعد أو تتقارب من الخطاب الإصلاحي أو السلفي المتشدد، وبين من اكتفى بنقل ما عند الغرب خارج حدودنا بحجة أنه أصلح حاله وصار متقدما، فطرحوا أسباب تقدمهم، ويصوروا لنا ملامح تقدم الغرب مكتفين بأننا ملكنا تاريخا حافلا بالمنجزات الحضارية، فحاولوا أن يجد حلا توفيقيا بين قيمنا المتوارثة والقيم الغربية فالعدل عندنا يوازى الحرية لدى الغرب. ولم يكن بوسعهم واقعيا أن يضعوا تصورا لإصلاح وتجديد الخطاب الدعوي، وبناء على ذلك تم الحديث عن إصلاح الخارج الغربي دون لمس عصب الإصلاح الداخلي مع أمل أن يأتي من يقوم بهذا العمل الإصلاحي.

وقد كان الشيخ علي معمر أقوى تأثيرًا في نقد وإصلاح ما يمكن إصلاحه في الخطاب الدعوي في ضوء قراءته الواعية للنص واكتشاف مكامن التطور المعاصرة في صحيح الدِّين، بمعنى صلاحيته لكل مكان وزمان، وكان الشيخ أكثر وعيًا بضرورة إيجاد مشروع حضاري يقوم عليه هذا الخطاب؛ وقد أفرز ذلك عنده نهضة فكرية ثقافية جديرة بالاعتبار لكن القاع الاجتماعي ظل يعانى الجهل والفقر، مما مكَّن للقوى المناوئة للإصلاح أنْ تلتهم كل معطيات التجديد والإصلاح لصالح الارتداد إلى مجهول يعاود طرح سؤالنا التاريخي الذى عفا عليه الزمن: لماذا تقدم الغرب وتأخرنا نحن؟ وهل نحن بحاجة إلى تجديد خطاب راسخ بالمعنى الإصلاحي أم أننا بحاجة إلى خطاب جديد أو خطابات جديدة تنطلق من الأفكار وعلاقتها بالواقع لا بالماضي؟

كما أنَّ هناك إشكال آخر يتمثل في المحنة السائدة الآن في مجتمعاتنا، وهي تكمن في تصور أنَّ الاندراج تحت راية مذهبية معينة تحمل ملامح خطابية، هو بطاقة الهوية الدنيوية كما إنها جواز السفر الآمن إلى الآخرة.

ومن هنا تلعب أيديولوجية الخطاب لعبتها الآثمة بلا شك حينما تحكم قبضتها على المشايعين لمذهب معين، فتسلبهم وعيهم الفكري وتسوقهم عقديا، كالسائرين نيامًا إلى حتفهم شهداء وراء شهداء.

وقد حاول الشيخ أنْ يعالج ذلك بطرحه للكثير من القضايا والإشكالات التي تواجه الخطاب الدعوي من خلال الرجوع إلى مكمن الداء في المجتمع المسلم، فبحث عنه وشخَّصه ووضع الحلول المناسبة له.

ويمكن الحديث عن ذلك من خلال جمع آليات الخطاب عنده في جوانب ثلاث علَّنا نقف من خلالها على مقاربة للمشروع الدعوي الذي وضع لبناته رفقة تلميذه النجيب الدكتور عمرو خليفة النامي والذي اعتمد عليه كثيرًا في تأسيس هذا المشروع الذي لم يكتمل بسبب الظروف الصعبة (55).

هذه الظروف التي عاشها الشيخ وتلميذه الدكتور وبعض تلامذته ومريديه وأصدقائه؛ مما أدى إلى عدم وضوح المشروع واكتماله رغم بروز معالمه وآليات؛ فالمعضلة إذاً في الحراك الاجتماعي والثقافي والسياسي الذي يباعد الهوة بين الخطابات، ويضع أيديولوجيات متصارعة تروم رفض الآخر، وإبعاده عن المشهد بأي وسيلة، ولو أدَّت إلى مصادرة فكره، بل وتغييبه كما حدث مع الدكتور النامي.

ويمكن تحديد إجابات الشيخ علي معمر عن كل التساؤلات السابقة من خلال عرض آليات يرى أنَّ بإمكانها تحديد حاجتنا أولاً لوعي مجتمعي بضرورة تجديد الخطاب أو حتى خطاب جديد، أخذًا بمبدأ استباق الأهم إلى المهم، فمن المهم العمل على التجديد أو استحداث الجديد لكن الأهم هل نملك على المستوى الشعبي – الذي يفتقد مقومات الوعي بمحتوى التجديد – ما يجعلنا نثق في إمكانية نجاح تجربة التجديد وترسيخها في الوجدان الشعبي كسبيل لكسر الانغلاق والانفتاح والتسامح وإحراز التقدم المأمول؟!

كما أنه لا يوجد خطاب ديني سائد، وإنما توجد تصورات تعكسها ألفاظ، ورؤى لا تشكل ملامح خطاب متكامل، بل تمثل وجهات نظر تحكمها دوافع وأغراض ومصالح تتشابك أحيانًا، وتتعارض وتتقاطع أحيانا أخرى، وجميعها ينتظر الاعتماد النظري من جهة معينة..

(55) تمثلت تلك الظروف في المداهمة والتفتيش أحيانًا والاعتقالات والسجن في أغلب الأحيان خاصة الدكتور عمرو النامي حيث تجاوزت ذلك إلى النفي خارج البلد والإقامة الجبرية والمنع من إعطاء الدروس والمحاضرات، وكذلك لم يسلم الشيخ علي من المداهمة والتفتيش لمسجد الفتح وبيته ومكتبته، هذا إلى جانب الحملة الشرسة والدعاية المغرضة التي سعت إلى تشويههما من قبل نظام القذافي وأعوانه، بل لم يسلم الشيخ من ذلك حتى في العهد الملكي.

لذلك يمكن مناقشة كل ذلك من خلال جوانب محددة أزعم أنها ترسم لنا آليا الخطاب الدعوي عند الشيخ هذه الجوانب هي:

- تفعيل رسالة المسجد والمؤسسات العلمية والأندية الثقافية.
- تصحيح المفاهيم والمصطلحات.

أولاً: تفعيل رسالة المسجد والمؤسسات العلمية والأندية الثقافية.

ناقش الشيخ علي معمر هذا الجانب باعتباره أهم آليات الخطاب الدعوي، فمهمة الدعوى ليست بالهينة في هذا العصر، بل هي عسيرةٌ شديدةُ العسر، ولا شك أنَّ الواجب يتطلب من الداعية مواصلة الفكر والدراسة والتخطيط، وذلك تبعًا ومراعاة لما يطرأ على نفسيات الناس التي تستوجب منَّا دائمًا تغيير الأساليب تبعًا لظروف حياتهم المتغيرة، ولكي يتضح المقصود من هذا الكلام استعرضَ الشيخ في كتابه: التوعية الدينية (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) صورًا متعددة لذلك مبرزًا فيها درو المسجد في العصور السابقة.

– **الصورة الأولى: كونه مركزًا ثابتًا وحيويًا للدعوة:** وذلك ابتداء من عهد النبوة واستمرارًا مع مسيرة التاريخ إلى انقلاب الأوضاع بسبب سيطرة الاستعمار على الأوطان الإسلامية كان منبِّهًا إلى أنَّ المسجد كان مكانًا ثابتًا ومركزًا حيويا للخطاب الدعوي، وكان ذلك كافيًا إمَّا كفاية كاملة كما كان في خير القرون أو كان كافيًا كفاية جيدة كما كان في أغلب القرون وأغلب بلاد الإسلام قبل الاستعمار الغربي.

وذلك أنَّ المحافظة على صلاة الجماعة كان من أساسيات الحياة، فلا يمكن لمسلم أنْ يغيبَ يومًا كاملاً عن المسجد، وإذا غلبه العمل واضطرته أشغالُه اليومية أنْ يغيب عن كل الصلوات في المسجد، فإنه يحاول جاهدًا حضور بعضها، فإذا لم يتمكن حزَّ ذلك في نفسه، وتركت فيه أثرًا من الإشفاق والخوف والندم يبعثه على الاستغفار لمدىً طويل [56].

– **الصورة الثانية: كونه الروضة والمدرسة والجامعة:** فالتعلم مرتبطٌ بالمسجد ارتباطًا كاملاً، حتى الكتاتيبُ القرآنية إمَّا أنْ تكون داخلةً في بناء المسجد أو مرتبطةً به، وسكنُ الطلبة الغرباء لابد أنْ تكون من ملاحقه أو على الأقل قريبة منه، وهكذا ينشأ الطفل ويلتحق بالكُتَّاب إلى أنْ ينقطع عن الدراسة أو يتخرج عالماً جليلاً وهو في بيئة للتوعية الدينية بأفضل أساليبها، في هذه الفترة الطويلة في دخول الطفل إلى الكُتَّاب حتى خروجه إلى معترك الحياة يقتبس علمه ويعرف أحكام دينه، ويكتسب سلوكه من جانبين:

– **جانبٌ نظريٌ:** ويتمثل فيما يلقى في المسجد من دروس ومواعظ وخطب وفتاوى وغيرها.

(56) انظر معمر: التوعية الدينية، ص 33.

- **وجانبٌ عمليٌ:** ويتمثل في السلوك الطيب الذي يحرص الناس عليه ليكون المسلم صورة حقيقة لما يأمر به الإسلام [57].

فالمسجد عند الشيخ علي معمر يشبه البحيرة الصافية النقية، يمرُّ بها الناس جميعًا فيغترفون بقدر حاجاتهم أو إمكانياتهم؛ لأنها متاحة للكل بقدر متساوٍ يأخذون منها ما يشاءون، ومَنْ كان عاجزاً عن أخذ حاجته امتدت إليه الأيدي تساعده وتمكِّنهُ وتناوله ما يحتاج منها [58].

إلا أنَّ الشيخ استدرك على تلك الصورتين بشيء من المرارة والأسى لما آلت إليه بعد الاستعمار، صورةٌ باهتةٌ مُفرَّغة من محتواها الذي كانت عليه المساجد فيما مضى، فقد غطّى الاستعمار عليها بسبب تقليد المسلمين للغرب في جميع مجالات الحياة حتى المتعلقة بالدِّين منها، فليس لها اليوم وجود في أكثر بلاد الإسلام، اللهم إلا إذا بقيت في بعض الأرياف البعيدة التي لم تتمكن شياطين أوروبا من الوصول إليها أو التأثير عليها [59].

فمجرد مقارنة بسيطة لصورة رسالة المسجد الآن ورسالته فيما مضى ندرك أنَّ مسجدَ اليوم بناءٌ حزينٌ مغلقُ الأبواب أكثر أوقات اليوم، مشيرًا إلى أنَّ الإهمالَ له تجاوز الدعوة وقصره على تأدية الصلاة فيه على استعجالٍ وكأنَّ مطارداً يطاردُ المصلين فيه، ثم يُغلق المسجد أبوابهُ إلى الصلاة الأخرى، فيتكرر نفس الموقف حتى في صلاة الفجر التي كانت هي الصلاة التي يجتمع فيها جميع المسلمين من أهل الحي أو القرية؛ لأنَّ أشغالهم في الغالب لم تبدأ بعد، ومنها يبدأ سعيهم للحياة، بل يظهر ذلك بشكل أوضح حتى كادت اليوم تصبح صلاة فردية.

ولم يكتفِ الشيخ بهذا التصوير، بل صور لنا هذا القصور بشكل صريح وأكثر وضوحًا في تأدية المسلمين لصلاة الجمعة وأنَّ اهتمامهم انحصر في يوم الجمعة الذي يُشعرك بأنك في بلد مسلم، ومع شعبٍ مسلمٍ ومسجدٍ عامرٍ وصلاةٍ تقام، ورجالِ علم يُفقِّهون الناسَ في دينِهم ويعلمونهم أحكامَ ربهم [60].

- **الصورة الثالثة: كونه مركزًا لتربية الناشئة:** نبه الشيخ علي معمر في هذه الصورة على أنَّ الطفلَ المسلمَ الذي كان سابقاً ممرّه ومقره الطبيعي للحياة هو المسجد، أصبح الآن بعيداً عنه بُعداً يكفي لإشعاره بالوحشة والغربة إذا دخله، مشيرًا إلى إنَّ أسلوب التربية والتعليم اليوم يزرع في نفس الطفل شيئاً من الاستهانة والاستخفاف بالمسجد، ويخلق جوًا من الوحشة وعدم الألفة بين المتعلم والمسجد؛ وبذلك فإنَّ الخطاب الدِّيني لا يصل إلى

(57) انظر معمر: التوعية الدينية، ص 33.

(58) انظر المصدر نفسه، ص 33.

(59) انظر المصدر نفسه، ص 34.

(60) انظر المصدر نفسه، ص 34.

هذا الطفل الذي يتعلم بعيدًا عن المسجد، باستثناء عددٍ قليلٍ جداً من الآباء الذين استطاعوا أنْ يغرسوا رعاية أحكام الإسلام في نفوس أبنائهم، وعوَّدُوهم على المحافظة على أوامره ونواهيه وآدابه [61].

وَأَرْجَعَ الشيخ علي سبب ذلك كله إلى إبعاد الطفل عن المسجد بسبب انشغاله بمراحل التعلم في المدارس، فيُشغل الطفل بالمرحلة الابتدائية ومن ثَمَّ المرحلة الإعدادية مع سن المراهقة وليس لهُ علاقة بالمسجد أبداً، وينتقل بعدها إلى المرحلة الثانوية بمختلف اتجاهاتها مع سنّ البلوغ وليس لهُ علاقة بالمسجد، بل إنَّ الأنظمة تمنع أكثرية الطلاب من الذهاب إلى المسجد . إذا كانوا في الأقسام الداخلية . بحكم النظام، فيعيش طالب الأقسام الداخلية عدداً من السنوات وهو منقطع انقطاعاً كاملاً، ثم ينتقل إلى المرحلة الجامعية وقد اجتاز مرحلة البلوغ وهو لا يزال بعيدًا عن المسجد، وقد يُتَاحُ لهُ دراسة عليا في بلاد أجنبية فيزداد انقطاعُه وبعدُه عن المسجد، فيجد في نفسه نفرةً ووحشةً من المسجد لاسيما وقد أصبح ذا مستوى علمي كبير يوهمه أنهُ أرفع من أنْ يكون من روَّاد المساجد والامتزاج بالفئات المختلفة من الشعب [62].

فشتان بين هذه الصورة التي وصفها الشيخ علي التي نشأ عليها الناس في هذه العصور، وبين الصورة الأولى للرعيل الأول؛ ولذلك دعى الشيخ إلى ضرورة إعادة التفكير في وسيلة معقولة لإيصال هذا الماء الزلال إلى كل عطشان ممَّن يمرُّ بجوارهم أو بعيدًا عنهم، بل يجب على الدعاة ألا يقفوا في سلبية وينتظروا من يمر بهم ليغترف من فقههم أو دروسهم ومواعظهم ثم يمضي، أو يتوسل إليهم في حرارة لكي ينال مما بين أيديهم [63].

وقد بيَّن الشيخ أنَّ هذا الأمر عان منه النبي ﷺ، فقد كانت الصورتان الأولى والثانية معاً في عهده، وذلك عندما كان في مكة في المسجد الحرام ومع ذلك فقد شعر أنَّ هذه البحيرة الصافية الرقراقة لا يأتيها إلا القليل لأسباب شتى، ولكنه ﷺ لم يكُفَّ عن ذلك، فلما هاجر إلى المدينة صار المسجد ملتقى الناس ومركز الدعوة إلى الإسلام، فيه يُقرأُ القرآن، وفيه تُفسَّرُ الأحكام، وفيه تُؤدَّى الفرائض في جميع الأوقات؛ لذلك كان من واجب الدعاة أنْ يتكفَّلوا بإيصال حقائق الإسلام إلى الأفراد والجماعات في كل مكان، وأنْ يلاحقوهم بها في مجالات عملهم أينما كانوا وحيثما أقاموا [64].

(61) انظر معمر: التوعية الدينية، ص 34.

(62) انظر المصدر نفسه، ص 33.

(63) انظر المصدر نفسه، ص 35.

(64) انظر معمر: التوعية الدينية، ص 36.

ثانيًا: تصحيح المفاهيم والمصطلحات.

اهتم الشيخ علي معمر بتصحيح المفاهيم والمصطلحات الشرعية التي فقدت بريقها ومقاصدها، وتأثيرها في إصلاح الفرد والمجتمع، فنتيجة الجهل والانحراف الذي وقع للعقل المسلم ضيق مجالها وانحسر استخدامها في بعض معانيها الظاهرة، بل فرغ الكثير منها من محتواها؛ مما أدى إلى إهمال أصل وضعها واستخدامها الشرعي، وهذا ما حاول الشيخ التحذير منه، وكذلك الدعوة إلى تصحيح الفهم الخاطئ والسطحي لتلك المفاهيم والمصطلحات بل لمراتب أركان الإسلام نفسها محاولاً تصحيح تلك المفاهيم المتعلقة بالشعائر التعبدية، بإحياء روحها وتطبيق ما تدل عليه وتهدف إليه وفق مراد الشارع الحكيم، وفهم الأولويات المتعلقة بها بما يحقق المقصد الشرعي من وضعها، وهذا يحتاج إلى جهد كبير من قبل الدعاة والجهات الرسمية والمؤسَّسات العلميَّة الإسلاميَّة، سواء بالدعوة إلى تغيير مناهجها ودراساتها، أو بالربط بين الجانب النظري والعملي السلوكي لتلك المفاهيم بما يمليها واقع الحياة للأمَّة المسلمة وضمن الإطار العام لمبادئ الاسلام.

أولاً: تصحيح مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يرى الشيخ علي معمر أنَّ أشق مرحلة على الداعية أو المرشد في هذا الموضوع نفسه هو أنْ يعرف المعروف ثم يلتزم بإتيانه، وأنْ يعرف المنكر ثم يلتزم باجتنابه، هذا فيما يتعلق به نفسه، أما فيما يتعلق بالناس بأنْ يستطيع إقناعهم بالمعروف إنه معروف ويجب عليهم إتيانهُ، وإقناعهم بالمنكر إنه منكر يجب عليهم اجتنابه والابتعاد عنه، منبهًا على أنَّ هناك مرحلة أكثر مشقة؛ وذلك بسبب نظرة المجتمعات إلى كل من المعروف والمنكر من الجهات الأتية [65]:

1. معروف تسلم بأنهُ معروف ويجب اتيانهُ.
2. معروف تسلم بأنهُ معروف، ولكن لا يمكن القيام به.
3. معروف لا تسلم بأنهُ معروف أصلا ولا تفكر حتى في محاولة القيام به.
4. منكر تسلم بأنهُ منكر يجب اجتنابه.
5. منكر تسلم بأنهُ منكر، ولكن يمكن اجتنابه.
6. منكر لا تسلم بأنهُ منكر أصلا ولا تفكر حتى في المحاولة لاجتنابه.

مرجعاً السبب في ذلك إلى تحكم العادات تحكماً غريباً مما يجعل المواقف أكثر صعوبة على الداعية بسبب الغبش الذي التصق بهذه الأمور، فيصبح من الصعوبة بمكان الفصل بين المعروف والمنكر، وكذلك صعوبة

(65) انظر المصدر نفسه، ص 51.

تحديد الأولويات بين أنواع المعروف التي يجب إتيانها والتي يسن، والتي يستحب، وكذلك أنْ يفصل أنواع المنكر التي يجب أنْ يجتنبها والتي يكره إتيانها؛ لذلك يرى الشيخ ضرورة تنبه الداعية لسلوك المجتمع في باب المعروف والمنكر وإدراك خضوعه لمؤثرات خاصة، فيعلم أن المجتمع أحيانًا يفرق بين المتماثلات ويجمع بين المتناقضات والمختلفات، وقد يتشدد في إنكار منكر ويتساهل في منكر أشد منه، وقد يتمسك بمعروف ويتهاون في معروف أوكد وأوجب منه [66].

ولمزيد البيان والتوضيح ضرب الشيخ علي معمر بعض الأمثلة التي تتعلق بتخبط الناس في إنكارهم للمنكر، والغبش الذي ران على قلوبهم وأفهامهم لمراتب المعروف والمنكر، بل لمراتب أركان الإسلام نفسها محاولاً تصحيح تلك المفاهيم المتعلقة بالشعائر التعبدية، فقال: "**رمضان** فريضة وركن من أركان الإسلام، ولو عرف المجتمع أنَّ شخصًا ما يأكل في رمضان لتناولتهُ الألسنة الحداد بالنقد، والأيدي المتسرعة بالصفع، واتخذ الناس معه أعنف المواقف، وقد تجد بين أولئك الناقمين من هو منتهك لحرمة الصلاة وتارك لها جهارًا، ولكن المجتمع مع ذلك ساكت عنهم متسامح معهم في تركهم للصلاة، وهو مقدَّر لمواقفهم المتشددة في الحملة على مفطري رمضان، وتجد مجموعات من الناس لا يؤدُّون الزكاة ولا يرون أنهم مقصرون في شيء، ولا يهتم المجتمع بهم، ولكنهم عندما يسمعون أنَّ شخصاً انتهك حرمة رمضان تأخذهم الغيرة على الإسلام ويملؤون الدنيا بالضجيج"[67].

"**الصلاة** أهم ركن من أركان الإسلام، وإقامتها معروف يجب اتيانهُ، وتركها أو التهاون فيها منكر يجب اجتنابه والابتعاد عنه، ومع ذلك فقد ساغ عند الناس أنْ يسكتوا أو على الأقل أنْ يهادنوا من تخلى على إقامة الصلاة، ولكنهم لا يهادنون من تخلى عن الصوم" [68].

فقد نبَّه الشيخ هنا من خلال هذا المثال الواضح الذي عشش في أفهام عامة الناس في المجتمع والذي أدى بهم إلى صعوبة التفريق بين المتشابهات، إلى صعوبة الأمر إذا حاول الداعية أنْ يقنع المجتمع أو حتى الأفراد بأنْ حرمة الصلاة أوكدّ من حرمة الصوم، وإنَّ الموقف الذي تتخذونهُ مع المفطر في رمضان هو نفس الموقف الذي ينبغي لهم أنْ يتخذوهُ مع المتهاون بالصلاة، ومانع الزكاة، والمقصر في أداء الحج مع توافر الشروط [69].

(66) انظر معمر: التوعية الدينية، ص 51.

(67) انظر المصدر نفسه، ص 51.

(68) انظر المصدر نفسه، ص 52.

(69) انظر معمر: التوعية الدينية، ص 52.

كما نبَّه الشيخ علي معمر إلى المصاعب الجمة في قضايا أخرى إذا تحولت عن هذا المستوى من الأمثلة الواضحة في المواضيع الواضحة المعلومة من الدِّين بالضرورة إلى مرتبة أقل وضوحاً من هذا، حيث جعل الناس هنا أربعة أصناف:

1. صنف يغلب عليه التقى والورع، سريع الاستجابة لكل معروف ونبذ كل منكر مهما كان مستواهُ العلمي.

2. صنف لهُ مستوى علمي وعقلي يؤهلاه لأنْ يفرِّق بين المعروف والمنكر، ولهُ وازع ديني يحمله على اتباع الحق، وهذا الصنف من الناس لا يتردد عن الاستجابة إلا بمقدار ما يجيل الموضوع في ذهنه ليقتنع أنَّ الدعوة الموجهة إليه حق.

3. صنف يتكون من العوام، وأشباه العوام، يسهل إقناعهم بالحكم الشرعي ما لم يكن مخالف لمعتقدٍ درجوا عليه وأصبح بمنزلة الشعار لهم، وهم غالباً ما يستجيبون لمن يأمرهم بالمعروف أو ينهاهم عن المنكر، وإنْ خالفوا ذلك الحكم بالعمل فهم يقرُّون بالمخالفة، ويستغفرون ويندمون، أما إذا كان الحكم الشرعي مخالف لتقاليد وعادات اجتماعية، فإنَّهم يخضعون لها وينساقون معها، ويخالفون الحكم ولو اقتنعوا بصحته، ومهما قيل لهُم عن عقوبة تلك المخالفة وشدتها.

4. صنف يتكون من انصاف المتعلمين الذين درسوا بعض الدراسات بعيدًا عن البيئات الدينية، وتلقوا حصيلة من المعارف العامة بأساليب لا دينية، أو معادية للدِّين، وأُوهموا أنهم يستطيعون أنْ يفهموا وأنْ يعللوا كل شيء، فهؤلاء تعسر معهم التوعية الدينة؛ لأنهم:

– يعتقدون أنهم أكثر ذكاءً وعلمًا وفهمًا ممن يُوجِّهُ إليهم التوعية، ويعتقدون أنَّ عقولهم متحررة لا يحق لها أنْ تستجيب للغير، وعرفوا وسمعوا عن سطحيات ظنُّوها لُبَابَ العلم فهم لا يتخلُّون عنها.

– ولأنَّ الغرور يغلب عليهم فتسهل عليهم الدعوى ويعسر عليهم الاقتناع حتى بالحجة الظاهرة، فهم قد ارتفعوا عن صنف العوام الذين يقبلون الحق ثقة بالقائل، ولم يبلغوا مرتبة من يهديه العلم، فيَقْبِلُ ما يقال لهُ بالتقييد، أو من يرفعهُ العلم فيَقْبِلُ بالتمحيص أو الاجتهاد.

هذا الصنف عبارة عن فئة ابتعدت عن حب المعرفة والعمل، وابتليت بمحبة المناقشة والغلبة في الجدل، ومن اليسير على هؤلاء أنْ يقول الواحد منهم ليس هذا في القرآن، أو ليس هذا في السنة، أو أنَّ الدِّين يقول كذا وكذا، فيصدر أحكاماً بالتحليل أو بالتحريم دون علم، أو ما يشبه ذلك من الدعاوى التي لا يعرف عن حقيقتها شيئاً، وإنما هي دعوى عريضة وتبجح ظاهر وتعالم بدون علم [70].

(70) انظر معمر: التوعية الدينية، ص 30.

ومن المفاهيم التي انتقد الشيخ ما علق بها من غبش وتحريف يحتاج إلى نقد وتصحيح مصطلح **الواعظ:** هو ما يبعث العظة في نفس المؤمن، وهي العبرة أو الاعتبار، ومعنى الاعتبار هو: مزيج من التفكير والتذكر والمقارنة والمقايسة ثم استخلاص حقيقة من مجموع هذه الأشياء تكون دافعاً إلى سلوك معين، فالموعظة أو العبرة هي حركة في النفس نابعة من الداخل بسبب مشاهدة أو سماع أو إحساس.

وبناء على هذه المعاني التي ذكرها الشيخ علي معمر لوصف الواعظ والمرشد فإنَّ أي منهما لا تنطبق على هؤلاء الشيوخ الأجلاء الذين تكلفهم جهة مسؤولة بإلقاء خطب الجمعة، والكلماتُ الفصيحة الرنانة في حفلات المواسم والأعياد، وهم غالبًا لا يظهرون في غير ذلك، فهم بهذا ليسوا وعَّاظاً ولا مرشدين، وذلك لسببين بسيطين [71]:

الأول: أنَّ رؤيتهم لا تذكِّر بالأخرة، بل ربما كانت تذكِّر بالدنيا والحرص عليها.

والثاني: أنهم لا يقومون بعملية الإرشاد سلوكًا، ولكنهم لا يزيدون عن مدرسين خففت حصصهم ولم ترتبط بمنهج محدد.

فسلوك الداعية أو الواعظ أو المرشد ينبغي أنْ تكون في مقدمة ما يدعو إليه فلا يوجد إلا حيثُ يقول، فإنْ خالف سلوكه قوله فقد فشل في مهمته فشلاً ذريعاً؛ لأنَّ الإنسان الذي لا يستطيع أنْ يرشد نفسه لا يستطيع أنْ يرشد الأخرين، ومن فقد الاستقامة في نفسه لم يتمكن من تقويم الناس [72].

وقد ضرب الشيخ العديد من الأمثلة والنماذج في هذا الباب مشيرًا إلى أنها كثيرة لا تدخل تحت الحصر، والنتيجة من هذا أنَّ مخالفةَ سلوك المرشد لما يدعو إليه تسقط أقواله وتبطل دعوته، وتهوّن في نفوس الناس خشية المخالفة، فلا يبقى لإرشاده أثر عند السامعين [73].

ويجب ألَّا تقتصر الدعوة في نظر الشيخ على الوعظ والإرشاد في المسجد وفي المناسبات فقط، بل ينبغي أن تكون في كل المجالات والمؤسسات، فالمعلم في **التعليم والتربية** عليه أنْ يعرف أنَّ تلاميذه هم جميع أفراد الشعب بمستوياتهم وعقلياتهم ومداركهم المختلفة، وبأخلاقياتهم المتباينة، وبأعمالهم المتفرعة، وبمصالحهم المتشابكة، وعليه أنْ يقودهم بحكمة غير مُنفِّرة في دروب الاستقامة حتى يُسلسوا القياد لأمر الله، ويتنافسوا على طاعة الله، ولن يكون ذلك إلا بعد أنْ يحصل منهم على الثقة والمحبة والاحترام.

(71) انظر المصدر نفسه، ص 28.

(72) انظر المصدر نفسه، ص 30.

(73) انظر المصدر نفسه، ص 30.

وهنا ينبِّه الشيخ علي على نقطة هامة في مناهج التربية والتعليم بمدارس يجب على المعلم الداعية أو على واضع المناهج الغيور على دينه أن يحرص دائماً على لفت نظر المدرسين إلى (مراعاة الفروق الفردية بين التلاميذ)؛ لمعالجة الفوارق معالجة شخصية، بحيث يسير كل طالب حسب مواهبه ومداركه واستعداداته.

وقصد الشيخ من ضرب هذا المثال بالتحديد لِيُبَيِّن للدعاة أنَّه إذا كان مراعاة تلك الفروق الفردية مطلوبة من مدرس الفصل الواحد الذي يحتوي على ثلاثين أو أربعين طفلاً، فإنْ المرشد الذي يبلغ عدد تلاميذه الآلاف موزعين في كل مكان، يتوجب عليه بصفة أهم وأوكد ملاحظة الفروق الفردية؛ ولذلك فإنَّ عملية الإرشاد والتوجيه ينبغي ألَّا تقتصر على درسين أو ثلاثة في المسجد أسبوعيًّا، أو على خطبة منبرية يوم الجمعة ويوم العيد، وإنما يجب أنْ تكون العملية مستمرة متواصلة في المساجد، وفي جميع أماكن التجمع، مع التركيز على المخالفات الفردية، ومراعاة توجيه ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة، حتى لا يكون سببًا في النفرة أو الإثارة أو ردة الفعل؛ ومن ثَمَّ إلى الفشل وخسران رسالة الإرشاد [74].

ودعوة الشيخ للدعاة بمراعاة الفروق الفردية ومعالجة حالات الأفراد في المجتمع وفق ما هو معهود في مدارس ومناهج التربية والتعليم بأساليب حكيمة تتناسب مع نفسيات الناس وطبائعهم، دعَّمه بالتنبيه إلى أنَّ تلك الجوانب متوفرة في السنة النبوية المطهرة القولية والعملية التطبيقية يستطيع المرشد أنْ يقتبس منها مَعَالِمَ يستوعبها ويهتدي بها ويسير في الطريق الذي تحدده [75].

ثانيًا: تصحيح المفاهيم المتعلقة بموسمية الإسلام:

سبق أنْ أشرنا إلى مناقشة الشيخ علي معمر لبعض المفاهيم التي اعتراها الانحراف والتي كان من بينها مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنَّه دعى إلى تصحيح ما علق بها من معانٍ أبعدتها عن المقصد من تشريعها، ولإزالة الغبش والانحراف الذي جعل الناس يخصُّون هذه الشعيرة وغيرها من الشعائر التعبدية في مواسم معينة من الأسبوع أو الشهر أو السَّنة، إذ كان أغلب الدروس والخطب المنبرية مرتبط بيوم الجمعة أو بشهر رمضان أو بعيد من الأعياد، وبمجرد انتهاء الموسم الدِّيني تختفي حتى لا تحس بالخطاب الدعوي ولا ترى له وجودًا حتى يقبل الموسم من جديد، ومن أهم تلك المواسم شهر رمضان، فبمجرد أن يَهلَّ هلاله يخرج الدعاة وينشط الوعاظ من جديد لتعويض النقص طول العام من نفقة الدِّين، فتهتز الإذاعات، وتظهر جداول الدروس طيلة الشهر قبل الصلاة وبعدها، وتكثر البرامج الإذاعية وتشارك الإذاعة المرئية، ولا تتأخر الصحافة

(74) انظر معمر: التوعية الدينية، ص 31.

(75) انظر المصدر نفسه، ص32.

عن الموسم فتقدم ما شاء الله من مقالات وأحاديث تتعرَّض فيها للقرآن والسنة والسيرة ولا تتخلف دفوف أصحاب الطرق وحناجرهم ورؤوسهم وخصورهم عن القيام بالواجب باعتبار أنَّ كل هذا الخليط هو من الإسلام[76].

فكل هذا النشاط والحركة الدائبة التي تستمر طيلة الشهر على ما فيها من إيجابيات وبعض السلبيات فيما ذكره الشيخ تختفي بمجرد انقضاء رمضان، فتبدأ تلك الصور في البهوت، وتلك الأصوات في الخفوت، والضجيج الذي كان يملأ الأجواء في السكوت، وترجع أجهزة التوعية إلى مبيتها السنوي منتظرة موسمًا جديدًا، حتى إذا جاء عيد الأضحى، أو عيد الهجرة، أو الموسم النبوي الشريف، أو ليلة الإسراء، تحركت تلك الأجهزة تحركاً حفيفًا، فإذا مرَّت المناسبة عادت إلى سباتها معتقدةً أنه يكفيها ما قدمته من عمل لله وللدِّين وللوطن في شهر رمضان المعظم.

أمَّا الإذاعة والصحافة فلا يبقى من نشاطها إلا حلقات الذكر في الزوايا تمارس نشاطها كل يوم جمعة وربما زادتها يوم الإثنين المصاحبة بالصخب والحركة الجسمية، وانتهاء بالدف والمألوف، لا تلبث أنْ تصبح كأنها أنيس أو حشرجة محتضر يكاد يختفي تحت دخان البخور الذي تعبق به أركان الزاوية [77].

ويرى الشيخ أنَّ هذه الصور المرتبطة بالأنشطة المنبعثة من أجهزة الإعلام بما فيها من حق وباطل وخير وشر لا تدخل تحت مسؤولية أجهزة التوعية الدينية رغم أنَّها مرتبطة بموسم ديني يرى أنَّها نفسها تحتاج إلى توعية دينية.

أما الحلقات التي تعقد للذكر المتحرك ابتداء من التسبيح المصاحبة بالصخب والحركة الجسمية، وانتهاء بالدف والمألوف فإنها وإنْ أُطلقت عليها أسماء دينية إلا إنَّ واقعها غناء ورقص وموسيقي.

هذا كله يدل على أنَّ للدِّين موسمًا تتحرك فيه جميع الجهود وتتضافر من أجل رمضان أو أيام الأعياد، ثم تهمد تلك الجهود وتخفت تلك الأصوات في سائر السنة.

ولم يكتفِ الشيخ ببيان ما أصاب شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من انحسار وموسمية فرَّغته من محتواه وجعلته عديم الجدوة والمنفعة، بل نبه أيضًا على أنّ هذه الموسمية تظهر عند الأفراد بشكل أشدّ وأضح؛ لذلك ناقشها الشيخ علي ونبه على ضرورة تصحيحها ونزع نمط الموسمية على الدعوة وتطبيق الشعائر، فتناول مظاهر ذلك عند مجموعات كبيرة من الناس لاسيما من النساء والشباب، الذين لا يعرفون الصلاة إلا من رمضان إلى رمضان، وإنَّ عدداً آخر لا يعرفها إلا في الجُمع والأعياد، بل إنَّ أكثرية الناس لا يعرفون المساجد إلا في أيام الجُمع أما بقية أيام الأسبوع فالصلاة حيثما اتفق، منبهًا إلى أن حديثه هذا لا يشمل الأفراد

(76) انظر معمر: التوعية الدينية، ص 22.

(77) انظر المصدر نفسه، ص 23.

الذين يتخلفون عن الجماعة بأعذار أو شبه أعذار، وتجد بعضهم جار للمسجد ويستمعون إلى الأذان، فيقوم أحدهم فيفترش بقية كيس قديم، أو سجادة أنيقة أحضرها معه من الديار المقدسة فينقر عليها نقرات خفيفة سريعة ويعود إلى ما كان عليه من لهو أو حديث أو نوم [78].

وقد صحح الشيخ تلك المفاهيم والأفكار من خلال مجموعة من التساؤلات أهمها: ماذا فعل الداعية والواعظ والمرشد، بل وأجهزة التوعية الدينية التابعة لوزارة الأوقاف لإقناع الشباب والنساء بأنَّ الصلاة واجبة في جميع أيام السنة بمقدار واحد وليس في رمضان فقط، وماذا فعلت في إقناع بعض بأنَّ المحافظة على الصلاة فقط وإهمال غيرها من الصلوات هو إهمال للصلاة وتفريط لا يغني عنه يوم الجمعة، وأنَّ من صلى الجمعة وحدها وترك غيرها لا يمكن أنْ يحسب من المصلين؟

وماذا فعلتْ في إقناع الناس بأنَّ الأصل في أداء صلاة الفريضة أنْ تكون في المساجد ومع الجماعة. وإنما أجاز الإسلام تأديتها في غير المساجد لمن يقوم في حقه عذر مقبول عند ربه تيسيرًا على الناس [79].

ثالثًا: تصحيح المفاهيم المتعلقة بالمذهبية والتيارات الفكرية.

من آليات الخطاب الدعوي عند الشيخ تصحيح المفاهيم المتعلقة بالمذهبية والتعصب وذلك بالدعوة إلى التقارب ونبذ الفرقة عن طريق التحاور مع الآخر المختلف والتعارف معه باعتباره سنّة حضارية ماضية، وأنّ الإنصاف للمخالفين والأخذ منهم دليل على الثقة في النفس وعلى الرغبة في الاستزادة من العلم والحكمة والمنفعة التي تؤدي إلى التعارف والاعتراف ومن ثم التواصل والتعايش مع الآخر، وليس دليل نقص في العقل أو ضعف في الدّين، كما صوّرت ذلك بعض المذاهب والتيّارات في تاريخ الفكر العربي الإسلامي، والتناحر الذي أدَّى إليه تصنيف المستشرقين للمذاهب الإسلامية ومن سار في ركبهم في عصرنا، وقد نبَّه إلى ذلك الشيخ علي معمر قائلاً: "ومحاولة تصوير المذاهب الإسلاميَّة كمعسكرات متناحرة يسَّر لها المستشرقون كثيراً ويعملون على تركيزها وقد ساعدهم على ذلك بعض السطحيين من علماء المسلمين في القديم والحديث، وبمثل هذا صارت تلك المسائل بمثابة الشعارات التي يرفعها أصحاب المذاهب، وكان المتعلمون في المراحل الأولى من الطلب وأشباه العلماء من محبي الظهور يجدون فيها وسائل طيبة ومساعدة على الجدل والشغب والشهرة وحب الظهور تمامًا كما يجد العوام وأشباه العوام في بعض الخلافات الفقهيَّة العلميَّة ـ كرفع الأيدي عند التكبير، وتحريك السبابة عند التشهُّد، وقراءة البسملة في أوَّل الفاتحة ـ وسيلة لإظهار المعرفة وبيان شدَّة التمسك بالدين

(78) انظر معمر، التوعية الدينية، ص 24.

(79) انظر المصدر نفسه، ص 25.

والمحافظة على السنَّة. فإذا ارتفعنا عن هذه المستويات قليلاً على مستوى أهل العلم وأصحاب التحقيق وجدنا هذه المسائل تدور فيما بينهم على طرفين متطرفين ووسط معتدل يلتقي عليه المذهبان" [80].

وقد أدَّى ذلك إلى تكوّن منظومة فكرية ثقافية لدى المسلمين على مدى قرون من الجمود على وحدة المعرفة والتوجس من الاختلاف والتنوع، واعتبارهما عنوان الافتراق والنزاع.

وعلى قاعدة من هذا الفهم للاختلاف في الإطار الإسلامي تبرز لنا مدى أهمية الدعوة التي دعى إليها الشيخ علي معمر المتمثلة في التقارب ونبذ الفرقة بتصحيح المفاهيم المتعلقة بالمذهبية والتعصب، وذلك عن طريق التحاور مع الآخر المختلف وإذابة التسميات المذهبية تحت بوتقة واحدة هي الإسلام فـ"لا سنِّيَّةً ولا مبتدعة ولا شيعة ولا خوارج ولا مالكيَّة ولا إباضيَّة وإنَّما هم مسلمون يتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح وكم يكون رائعًا حين يقف المدرِّس والواعظ والمحاضر فلا يحتجُّ إلاَّ بقول الله أو قول رسوله فإذا احتاج إلى كلام الناس استشهد بكلام عالم من العلماء مقتصرًا على ما ذكر اسمه وامتنع كلّ الامتناع أن يجري على لسانه اسم المذهب أو الفرقة أو الطائفة فانمحت من المجتمعات الإسلاميَّة الألقاب المطلَّقة على مجموعات الفرق كالشيعة والسنَّة والخوارج والمعتزلة واختفت منه أسماء الفرق فلم يبق ذكر للحنفيَّة أو المالكيَّة أو والإباضية أو الزيديَّة أو الظاهريَّة أو غيرها وإنَّما كلّ ما يبقى أسماء علماء ضمن كشف طويل يتضمَّن من خدم الشريعة الإسلامية منذ البعثة إلى قيام الساعة. أمَّا الأمَّة الإسلامية فهي تتكوَّن من جميع من نطق بكلمة الشهادة وإليها يتَّجه النداء القرآنيُّ الكريم {يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا} وتكون مجتمعا واحدًا لا انشقاق فيه فإذا شذَّ فرد فارتكب معصيَّة لاحقه المجتمع بالموعظة أو بالحكم الذي انزله الله حتَّى يتوب فيعود إلى مكانه أو يهلك على إصراره فيتولَّى الله تبارك وتعالى حسابه" [81].

وقد تصدّى الشيخ علي معمر لمقالة التكفير – التي اتخذت سلاحا في وجه المخالفين، ومسوغاً لإشهار السيف في وجوههم استناداً إلى ذرائع ظاهرها ديني، وباطنها سياسيّ عشائري نفسيّ – وذلك في كتابيه (الإباضية بين الفرق الإسلامية، والإباضية في موكب التاريخ) تصدى إلى هذا النوع من الخلاف وناقش فيه أصحاب المقالات الذين جنوا على المذهب الإباضي وغيره من المذاهب الإسلامية، فالتكفير في رأيه (قولة ناشئة عن قلّة تأمّل وإحاطة بموارد الشريعة وإغضاء عن غرضها) وإنّ التوسّل بهذه المقالة لدليل قاطع على عدم المعرفة الصحيحة بما عند الآخر وضعف حجة أصحابها وقصورهم عن إقامة الحق، إذ تنطوي في حقيقتها وجوهرها على انتصارٍ للذات لا للدِّين.

(80) معمر، علي: الإباضية بين الفرق الإسلامية، ص 215، 216.

(81) معمر: الإباضية بين الفرق الإسلامية، ص 320.

كما أنّها تسوّغ الاعتداء والظلم وتلبسه لبوس الدِّين، وتعطي للاستبداد طابع الشرعية وتحوّل مجال الحوار إلى مجال تنابز، وتنقل الاختلاف الفكري إلى صراع وتقاتل، وتصبح فئات المجتمع مشحونة ضدّ بعضها بعضاً، فتنقلب قوى المجتمع وطاقاته إلى عوامل تآكل داخلي بدل أنْ تكون عامل قوّة ومنعة، وذلك أبرز عامل من عوامل الضعف والانهيار، وقد بيَّن ما ينبغي على العلماء فعله إزاء هذا النوع من الاختلاف قائلاً: "فإنَّه ينبغي أن تختفي بعض المصطلحات أو بعض المفاهيم، وتنشأ بدلا منها مفاهيم أو مصطلحات أخرى تكون أقرب إلى توحيد جميع صفوف المسلمين وتوحيد كلمتهم. فلا معنى أبدًا أن يأتي إنسان يسهل عليه تمامًا أن يستخفَّ بأحكام الله فيرتكب ما نهاه عنه ويهمل ما أوجبه عليه ثمَّ يزعم ـ في تبجح ظاهر ـ أنَّه سنِّي أو من أهل السنَّة. فإذا قابله إنسان آخر لا يتَّفق معه في المذهب رماه بأنه مبتدع رغم الصلاح والتقوى. والحقيقة عكس ما يقول"[82].

فظاهرة تبديع وتكفير بعض المسلمين وتفسيق بعضهم الآخر، والحكم بالابتداع على كل من يخالف رأيًا فقهيًا معينًا، ظاهرة قديمة في تاريخ الإسلام؛ لأنها نتيجة طبيعية لانحراف بعض العقول، وضيق أفقها عن قبول الرأي المخالف " فأصبح كلّ مذهب من مذاهب المسلمين إذا نظرت إليه من زاوية أتباعه هو مذهب السنَّة ومذهب الحقّ ومذهب الاستقامة ومذهب العدل ومذهب الصواب وإذا نظرت إليه من زاوية مخالفيه فهو مذهب الأهواء ومذهب البدعة ومذهب الزيغ ومذهب الضلال. وينشأ الناشئ المسلم في أكناف أحدها فتعتاد أذنه على سماع هذه الأوصاف والنعوت ويتلقَّاها ويتشرَّبها في غير كُلفة حتَّى تُصبح عقيدةً غير خاضعة للنِّقاش أو المراجعة " [83].

كذلك احتلت مقالة «الفرقة الناجية» حيزًا واسعًا في كتب التراث، فعندما صارت كل فرقة تدَّعي استئثارها بالحقيقة، وترى الفرق الأخرى سابحة في متاهات الضلالة، واستحال الاختلاف عاملاً من عوامل الصراع الداخلي بدل أنْ يكون مصدر قوة وثراء، وانصرف العقل الإسلامي في هذا الخضم عن أداء دوره الأساسي باعتباره مصدر توليد المعرفة وتطويرها وآلة إعمار الأرض وإثمارها.

وبذلك نبتعد عن كل ما يؤدي إلى العصبية والجهل والتشاحن والتباغض والفرقة والتشتت؛ فيغيبُ ويختفي الحوارُ المثمرُ، وفي هذه الحالة مهما التجأنا إلى الحوار، فلن نصل إلى النتيجة المرجوة له، نعم قد نصل إلى التسامح المبني على فوقية المتسامِح تجاه المتسامَح معه؛ لأنَّ البعضَ يعدُّ التسامح إهانة للآخر؛ لذلك اختار الشيخ علي معمر مصطلح التعارف بين المذاهب والفرق الإسلامية، ولم يختزْ التسامح؛ لأنَّ علاقة المسلمين

(82) علي يحي معمر: الإباضية بين الفرق الإسلامية، ص 317.

(83) علي يحي معمر: المصدر نفسه، ص 316.

فيما بينهم علاقة إيمانية، توحدهم تحت بوثقه الإيمان بالله الواحد الأحد، وليست علاقة تسامحيه، وشتان بين العلاقة القائمة على الإيمان، وتلك القائمة على التسامح، فالعلاقة الأولى نديّة تقوم على الاعتراف بالحق واحترام الاختلاف.

بينما الثانية فوقية، تقوم على إنكار الحق والاستعلاء على المختلَف معه، فلن يعترف أحدٌ بالآخر ما لم تصحح بعض المصطلحات والمفاهيم الخاطئة العالقة في أذهان أتباع الفرق والمذاهب الإسلامية وفي ذلك يقول: "وقد كانت العصبياتُ المذهبية وأصابع السياسة، وبُعد بعض المسلمين عن بعضٍ، وجهلُ أهلِ كلِّ مذهبٍ بما عليه الآخرون، حواجزَ تحولُ دون تعرُّف المسلمين بعضهم ببعض. أمَّا الآن – وقد اختلط المسلمون بعضهم ببعض وعرف الكثير منهم الكثير عن الآخرين – فإنَّه ينبغي أنْ تختفي بعضُ المصطلحات أو بعض المفاهيم، وتنشأ بدلاً منها مفاهيم أو مصطلحات أخرى، تكون أقربَ إلى توحيدِ جميع صفوف المسلمين وتوحيد كلمتهم. فلا معنى أبدًا أنْ يأتيَ إنسانٌ يسهل عليه تماماً أنْ يستخفَّ بأحكام الله فيرتكِبَ ما نهاه عنه، ويهمل ما أوجبه عليه، ثمَّ يزعم – في تبجح ظاهر – أنَّه سنِّي أو من أهل السنَّة؛ فإذا قابله إنسانٌ آخر لا يتَّفق معه في المذهب رماه بأنَّه مُبتدعٌ رغم الصلاح والتقوى، والحقيقة عكس ما يقول"[84].

وهذا يتطلب عند الشيخ إدراك التسلسل المعرفي والمنطقي بين أنواع الحوار ودوائره في النسق الإسلامي، والمؤدِّي إلى حوار متنوع ومتعدد ومتداخل ومتصل، يبدأ ويدور في دوائر كثيرة متداخلة يمكن حصرها في ثلاث دوائر رئيسة لو تمسك بها المسلمون لنعموا بالتواصل والتواد والتراحم فيما بينهم، هذه الدوائر هي: (المعرفة، والتعارف، والاعتراف)، وقد جعلها الشيخ وسائل لوحدة الأمة وحفظ الأخوة والتسامح بين أفرادها وجماعاتها، فقال: "أنَّ المذهبيَّة في الأمَّة الإسلاميَّة لا تتحطَّم بالقوَّة ولا تتحطَّم بالحجَّة. ولا تتحطَّم بالقانون، فإنَّ هذه الوسائل لا تزيدها إلاَّ شدَّة في التعصُّب، وقوَّة ردِّ الفعل؛ وإنَّما تتحطَّم المذهبيَّة بالمعرفة والتعارف والاعتراف، فبالمعرفة يفهم كلّ واحد ما يتمسَّك به الآخرون، ولماذا يتمسَّكون به. وبالتعارف يشتركون في السلوك والأداء الجماعيِّ للعبادات. وبالاعتراف يتقبَّل كلُّ واحد منهم مسلك الآخر برضى ويعطيه مثل الحقِّ الذي يعطيه لنفسه (اجتهد فأصاب أو اجتهد فأخطأ) وفي ظلِّ الأخوَّة والسماح تغيب التحدِّيات وتجد القلوب نفسها تحاول أن تصحِّح عقيدتها وعملها بالأصل الثابت في الكتاب والسنَّة غير خائفة أن يقال عنها تركت مذهباً أو اعتنقت مذهباً"[85].

(84) معمر: الإباضية بين الفرق الإسلامية، ص 317.

(85) معمر: معمر: الإباضية بين الفرق الإسلامية، ص 2.

الدائرة الأولى: المعرفة التي تؤدي أولاً إلى الحوار مع الذات في إطار الذات بوصفها فردا وجماعة، ثم الحوار مع الآخر ثانياً، أي يفهم كل واحد ما عنده وما يتمسك به الآخرون، ولماذا يتمسكون به [86]. في هذه الدائرة يتحاور المسلم مع نفسه ليكتشف حقيقة توجهه، ومدى مصداقية المنهج الذي يتبعه، ومدى التزامه به في قلبه ونفسه وفؤاده وجوارحه وأفعاله وسلوكياته

الدائرة الثانية: التعارف الذي يؤدي إلى الحوار مع الذات في إطار حضور الآخرين، وهو التعارف الذي يشتركون فيه من حيث السلوك والأداء الجماعي للعبادات [87].

وفي هذه الدائرة يتحاور المسلم مع ذاته في تنوع مستوياتها، لكن في حضور الآخرين؛ أي في حضور جميع الفرق والمذاهب الإسلامية، والأجناس والجماعات الأخرى المغايرة له في الرؤية والعقيدة والتصور. وهنا يجب أنْ يكون كل من المتحاورين مطلعاً على ثقافة الآخر ومنطلقاته العقدية والفكرية.

وكذلك يتحاور المسلم مع أخيه المسلم بعيداً عن اللزوميات الكلامية وسبق إصدار الأحكام والتوجس والتشنج من الآخر أو التشنيع عليه حتى يخلق مجالاً حيوياً للتأثير في الآخرين " فإذا استقام التاريخ الإسلامي، وعَرَضَ كلُّ أصحابِ فرقةٍ من فرق الإسلام عقائدَ تلك الفرقة، وأحداثَ تاريخها، ومدى ارتباطها بمصدرها الأول عرضاً واضحاً صريحاً، وأُزيلتْ عنها ما ألصقته بها الدعاية المغرضة، أو الجاهلة، أو المستغفلة، وجد جميع أصحاب الفرق في جميع مواطن الإسلام، أنهم متشابهون كل التشابه، فهم منطلقون لتحقيق الرسالة الخالدة التي أُنيطت بهم، في طريق واحدة، أوفي طرق متشابهة، منتهية إلى غاية واحدة"[88].

فالقضيةَ هنا هي قضيةُ تعارفٍ قائم على معرفة ما عند الآخر، وذلك باطلاع كل فريق على ما عنده للآخر، وإزالة الحواجز النفسية والاجتماعية التي فصلت الأُمة بعضها عن بعض ردحًا من الزمن، وأوجدت الوحشة، فإنَّ إزالة هذه الحواجز يُبدِّل هذه الأُمة بالوحشة والنفور أُلفةً وتقارباً، وهذا الذي حصل فعلاً، عن طريق مؤسسات عديدة عملت على مدِّ الجسور بين فئات الأمة ليتم التعاون بينها بعد التعارف والتفاهم فيما بينها [89].

فالتعارف كمبدأ إنساني حضاري سام له أكبر الدور في منع النزاعات والصراعات، فهو يقرب الأفكار والمسافات وينسج أواصر التعاون والتفاهم ويهدف إلى بناء أسس حوار حضاري مثمر وبناء.

(86) انظر المصدر نفسه، ص 2.

(87) انظر المصدر نفسه، ص 2.

(88) معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ص 19.

(89) انظر الخليلي، أحمد بن حمد: لقاءات في الفكر والدعوة، ص 324.

– **الدائرة الثالثة:** الاعتراف الناتج عن الحوار مع الآخر وفي إطار الآخر بوصفه فرداً وجماعةً، أو عن طريق تقبُّل كل واحدٍ منهم مسلك الآخر برضى، وإعطائه مثل الحق الذي أعطاه لنفسه، اجتهد فأصاب أو اجتهد فأخطأ فـ" يتقبَّل كلُّ واحد منهم مسلك الآخر برضى ويعطيه مثل الحقِّ الذي يعطيه لنفسه ... وفي ظلِّ الأخوَّة والسماح تغيب التحدِّيات وتجد القلوب نفسها تحاول أن تصحِّح عقيدتها وعملها بالأصل الثابت في الكتاب والسنَّة غير خائفة أن يقال عنها تركت مذهباً أو اعتنقت مذهباً"[90].

وهنا يتحاور المسلم مع الآخر المغاير، لكن في ظل نموذجه وتراثه وثقافته من أجل الحفاظ على هُويته وثقافته مخافةَ ذوبانها، وتحللها بفعل ضغط الثقافات والأنساق الأخرى، لا من أجل إقصاء الآخر أو محوه من على ظهر الأرض "ولن نصل إلى هذه الدرجة حَتَّى يعترف اليوم أتباع جابر وأبي حنيفة ومالك والشافعيِّ وزيد وجعفر وأحمد وغيرهم مِمَّن يقلِّدُهم الناس أنَّ أئمَّتهم أيضاً يقفون في صعيد واحد لا مزيَّة لأحدهم على الآخرين إلاَّ بمقدار ما قدَّم من عمل خالص لله"[91]، وبهذا ينجح المسلم في تحقيق حوارٍ مثمرٍ وفاعلٍ وبنّاءٍ مع الآخر، يصلُ إلى الاعتراف والتعايش والتفاهم، سواء أكان فرداً أم جماعة، فرقة أم مذهباً، مجتمعاً أم ثقافة أم حضارة.

(90) معمر: الإباضية بين الفرق الإسلامية، ص 2.

(91) معمر: المصدر نفسه، ص 2.

خاتمة:

أهم نتائج البحث:

1- يتوزع الخطاب الدعوي عند الشيخ علي يحي معمر عبر المحطات المتعددة في حياته بين التنظير في المؤلفات والدراسات والأبحاث التي قدمها، وبين تطبيق وتنزيل ذلك على أرض الواقع.

2- ظهرت آثار الشيخ وجهوده الدعوية في تصحيحه وتصويبه للكثير من التصورات الخاطئة، وإظهاره للحقائق التاريخية الناصعة.

3- يظهر اهتمام الشيخ علي معمر بالخطاب الدعوي التنظيري من خلال المساق الفكري والعقدي في كتاباته وبحوثه ومقالاته ظهورا بارزا.

4- اهتم الشيخ علي معمر بالخطاب الدعوي من خلال مساق اجتماعي تربوي في العديد من كتبه التي عالج فيها بعض القضايا الاجتماعية والتربوية ككتاب "الأقانيم الثلاثة" أو "آلهة من الحلوى" وكتاب "الفتاة الليبية ومشكل الحياة" وكتاب "الميثاق الغليظ".

5- استغل الشيخ علي معمر المساق التاريخي للخطاب الدعوي من خلال ما كتبه من مباحث تحت عنوان (الإباضية في موكب التاريخ) والتي قدَّم فيه دراسة عامة عن الإباضية في بلدانهم المختلفة تخللتها جوانب اجتماعية لتلك المجتمعات والبلدان. وذلك بعرض آراءهم وتاريخهم بصورة أوضح لتحقيق فهم أفضل لهم من قبل بقية المسلمين.

6- ينطلق الشيخ علي معمر في خطابه الدعوي من خلال بذل جهود معتبرة في القيام بالعديد من الأعمال التي رأى فيها مجالاً خصبًا للدعوة والإصلاح، وكذلك من خلال تأسيس عدة مؤسسات تربوية، يرى فيها تحقيق الجانب الإصلاحي والاجتماعي ونشر الوعي الثقافي وفق ما تقتضيه مقومات ذلك الخطاب وآلياته.

7- أهم الجوانب التي تحدد لنا آليا الخطاب الدعوي عند الشيخ تتمحور في تفعيل رسالة المسجد والمؤسسات العلمية والأندية الثقافية، وتصحيح المفاهيم والمصطلحات التي انحرفت العقول في فهمها وتحقيق مقاصدها.

المصادر والمراجع:

1. ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني: معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ - 1979م.
2. ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت - لبنان، الطبعة: الثالثة، 1414 هـ

3. الأحمد نكري، عبد النبي بن عبد الرسول: جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، ترجمه من الفارسية: حسن هاني، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1421هـ – 2000م.
4. البشير، عصام أحمد: نحو خطاب إسلامي مرتبط بالأصل ومتصل بالعصر، منتدى النهضة والتراث الحضاري، الخرطوم، ط2، 2015م.
5. البيانوني، محمد أبو الفتح: المدخل إلى علم الدعوة، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان.
6. الجرجاني، علي بن محمد: التعريفات، تحقيق وضبط وتصحيح جماعة من العلماء بإشراف دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1403هـ –1983م.
7. الزَّبيدي، محمّد بن محمّد: تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية.
8. الشيخ بالحاج، قاسم بن أحمد: الشيخ علي يحي معمر أضواء على شخصيته وفكره، جمعية التراث، القرارة – ولاية غرداية– الجزائر، ط1، 1424هـ – 2003م
9. عليوة، نعمان شعبان: الأساليب البيانية للخطاب الدعوي الواعي، مؤتمر الدعوة الإسلامية ومتغيرات العصر، الجامعة الإسلامية، غزة: فلسطين، ط1، 2005م.
10. عون الله، سليمان: ترجمة حياة الشيخ علي يحي معمر (مخطوط)، 1991م.
11. الغزالي، محمد: مع الله، طبعة دار القلم 1426هـ.
12. معمر، علي يحي: الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى: نشأة المذهب الإباضي، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط1، 1384هـ – 1964م
13. معمر، علي يحي: التوعية الدينية (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) مخطوطة بخط المؤلف، مصورة إلكترونيًا، وقد كتب أغلب فصولها كما أشار المؤلف في عام 1973م.
14. معمر، علي يحي: سمر أسرة مسلمة، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، السيب – سلطنة عمان، ط3، 1435هـ – 2004م
15. معمر، علي يحي، الإباضية بين الفرق الإسلامية، مكتبة الضامري، السيب: سلطنة عمان، ط3، 2014م
16. معمر، علي يحي، الأقانيم الثلاثة (آلهة من الحلوى)
17. معمر، علي يحي، الفتاة الليبية ومشاكل الحياة.
18. معمر، علي يحي، الميثاق الغليظ.